دور الفرد في التاريخ

بليخانوف



ترجمه وقدم له

إحسان سركيس

دار دمشق
للطباعة والنشر

المكتبة الاشتراكية

بليخانوف

دور الفرد في التاريخ

ترجمه وقدم له

إحسان سركيس

دار دمشق
للطباعة والنشر

وافقت وزارة الاعلام ـ مديرية الرقابة على طبع وتداول هـذا الـكتاب تحت رقم ٥٢٧٢

١٩٧٤/١٠/٥٠٠٠

مقدمة

يستأثر الفرد البارز باهتمام الناظر في التاريخ والمعتبر بـه، ويفتقد عندما تستدعيه حاجة راهنة فتتلامح الصورة الالقـة التي بقيت عن امثاله الماضين فاذا وصل الى مركز السلطة والنفوذ فقلما ينتفي التململ منه والضيق به حتى يكاد ان يجري عليه ما اوردته حكمة صينية قديمة : **((الرجل العظيم مصيبة عامة))** .

وتطل هامات كثيرة ، من خلال العصور ، لا تزال الى اليـوم موضع التقييم ومثار الجدل واختلاف الرأي فيها أو الحكم عليها ، وذاك لان من شأن التاريخ هذه المزية أو هذه المشكلة ألا وهي امكان كتابته دائماً من منظور جديد . وكـأن كل عصر ميسـر لان يكتب التاريخ من وجهة نظره فيرى الماضي من خلال اهتماماته والافكار السائدة فيه : وكأن التاريخ، بمعنى ما ، حوار بين الحاضر والماضي أو هو ، على الحقيقة ، اعادة كتابة واعادة تفسير مستمرتين . ولئن كان التاريخ حوارا بين الماضي والحاضر فهو أيضا حوار بين المؤرخ والقارىء ، وبذلك تصبح الحوادث ذات قيمة عندما يستنطقهـا المؤرخ على قدر مسؤوليتها ومدى تأثيرها في وضع الانسان وتوجيـه مصـيره .

ان دور الفرد البارز أو العظيم في التاريخ ليس مجرد معضلة عملية وانما يؤلف مشكلة من أعظم المشاكل النظرية في التحليل أو التأويل التاريخي . وموضع الخلف في الآراء حولها يكمن في الفلسفة او النظرة العلمية التي يعتنقها من يكتب التاريخ وان ظل غالبا اهتمام كل فلسفة تاريخية باقامة توازن شبه معقول بين الدور الذي لعبه البشر والمسرح المكيف الذي قدم مواد « مآسي » التاريخ الانساني والذي قدم أحيانا قواعدها ونواميسها ولكنه لم يقدم اطلاقا تصاميم وحبكات تلك «المآسي» . وما ذاك الا لاننا لا نستطيع ان نتصور الكائن البشري الا في محيط وفي وضع وحالة .

لقد ازداد الاهتمام ، في زماننا ، بأقوال الرجال البارزين واعمالهم الى درجة لم يرق اليها قبلا . ولعل هذا الاهتمام يرتكز الى حقيقة أساسية وهي عدم الاستغناء عن الزعامة ، حتى اليوم ، في كل حياة اجتماعية وفي كل شكل من اشكال التنظيم الاجتماعي أو السياسي ، فضلا عما يستدعيه الشكل المركزي البالغ التعقيد في الدول المعاصرة ، وتعدد مهامها ووضعها الامكانات الهائلة ، في التقدير والتقرير ، بين أيدي قلة من الناس .

وتجري في ايامنا هذه معاودة هذا الموضوع ولعل الحادي عليها ظاهرة تاريخية تميز بها النصف الاول من هذا القرن ، وهي كثرة الرجال البارزين فيه ، وهؤلاء لعبوا أدوارا كان لها انعكاسها الكبير داخل بلادهم وفي العالم اجمع ، وفي مجال تقييم أعمالهم كان لا بد من تأمل ما اصابوا أو أخطأوا وما قاربوا فيه القصد او جانبوه وما كانت تستدعيه الحاجة الزمنية من مواقف واعمال وما استقلوا فيه بنوازع فردية . يضاف الى ذلك ما يثار على الصعيد النظري

من مناقشات في دنيا الفكر التقدمي بعامة واليساري بخاصة ، حول دور الجماهير ومبادهاتها وحول العفوية والتنظيم ، التنظيم المنبثق تلقائيا من خلال العمل والممارسة او التنظيم الذي يحكمه أو يفرضه حزب يمثل وعي الطبقة او وعي الشعب. كما يتفرع على البحث تأمل دور النخبة او القلة في تمثل هذا الوعي واستيعابه والقيادة او الريادة بمقتضاه أو انبثاق القيادة في اللحظات الحاسمة التي يبلغ فيها وعي الطبقة ذروته ، في الثورة مثلا ، فتختار الطبقة قادتها من خلال الفعل والممارسة ..

هذا وذاك من الاسباب والبواعث يدعوان لمواجهة دور الافراد البارزين في ظل الظروف الموضوعية وفي ظل ما اتيح لهم من النفوذ والشوكة حتى يمكن الوصول الى بعض الملاحظات او التعاميم او النظريات .

ونحن في هذه المعالجة نمضي في تماس معمختلف الآراء القريبة أو الموافقة لما نؤمن به ونعتقد ومع ما يخالف منها في الرأي لان المشكلة في احتوائها الموضوعي والذاتي تقتضي الا ينصرف الرأي في صراع مع هذه النظرية أو تلك قدر الاهتمام بالتفكير معها من خلال وجهة النظر التي تأخذ بها . لهذا فسبيلنا الالمام بالعديد من النظريات والمبادىء ، كما لو كانت جميعها صحيحة أو مجدية ، وردها الى شيء من الوحدة والتركيب ، من خلال الموافقة او المعارضة ، كما لو كان ذلك ممكنا وتقبلها جميعا بعد اعطائها حيزها المعقول ، لان كل فهم أو تفهم يتضمن انعطافا منهجيا لا يستبعد القناعة وموجباتها ولا يحل محلها ، ولان تعدد الآراء واختلاف المناهج لا بد أن يكشف للمرء أن تعدد الطرق التي تستهدف

الحقيقة ليس بالضرورة ، خطأ محضا وبدونه لم يكن بالوسع ان يكون لهما تاريخ .

ويشهد عصرنا تفجر الكليات ، المعاني الشاملة ، وما كان منها مسلمات لا يمارى فيها . واذا كانت الوحدة أو الشمولية هي من منازع العقل فادراك المعنى الشمولي لا يتم الا باعتبار حقيقتين : الاولى هي أن الانسان يروم أن يكون شاهدا للحاضر وشاهدا على الماضي وهو لا يجهل أن الماضي بعد من ابعاد الحاضر ، وما من نظام او منهج او سياق عام ينشأ مبتوت الصلة بما سبقه لانه يحمل في صلبه سلسلة من الاهداف ، لهذا فسبيله أن يستند الى نظام قبله ، ولكنه ، في استناده هذا لا يرجع الى مجموع أحداثه وانما الى جانب من سياقها فيسقط منها ويزيد . والحقيقة الثانية هي أن الوحدة او الشمولية لا تقع الا على مراحل وبأجزاء تتكامل لهذا يغدو مفيدا وضروريا مشاقة الآراء من جانب والاعتراف بأن لدى الآخرين بعض الحقائق أو انهم وصلوا ، في مجال حقيقتهم التي يؤمنون بها الى حد قد يكون بالغ الدقة والوضوح والسمو .

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هو : ـ ما هي القوة التي تحرك الشعوب ؟

ولقد اختلف الجواب باختلاف الازمنة والاعصر فكان ينصرف قديما الى الدور المتمثل في القدرة والكفاءة اللتين كان يمتلكهما الابطال والحكام العظام . ولكن هذا المفهوم طرأ عليه مع الزمن تبديل وتعديل فلم يعد يؤخذ به على علاته وعلى وجه التفرد والاطلاق ، وكذلك لم يعد يؤخذ بالفكرة التي ترى الحياة المسرح الكبير المشرع

ابدا يدعو الممثلين لادوار ملزمة محـددة فالغلو في الاولى اسقـاط للاسباب الموضوعية والغلو في الثانية اسقاط للوعي الذاتي وحرية الاختيار والمجهود الارادي والحياة لا تحتمل هذه الفرقة النظرية ، وجميع المدارس التي تناولت هذا الموضوع أو تتناوله تدور حول هذين القطبين من الآراء او بينهما : اعطاء الفرد الاولوية المطلقـة والاثر الحاسم أو الجبرية المطلقة .

تأويل التاريـخ :

يتفق الباحثون على أن الانسان كائن تاريخي لانه انما يعمـل في الزمان ولا تاريخ الا بالزمان ، ومن هنا ارتبطت كل نظرية فـي التاريخ بنظرية في الزمان ، والانسان هو الوحيد بين الكائنات الحية الذي يعي الزمن لهذا فهو الوحيد ذو التاريخ . وقد ذهب بعضهم الى اعتبار هذه المدة الزمنية وفقا لاحداث ومقاصد معينة وهم فريق أصحاب النظريات الدينية فيالزمان وفي التاريخ الذين ربطوا الزمان بالخلق الاول وبمصير الانسان في الدنيا وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب وفريق ربطوا تلك المدة بأحداث فلكية كونية بمعزل عن كل المعاني . ومنهم من اعتبر للتاريخ مسارا واحدا ومنهم مـن اعتبره دوائر ومن قالوا بالاول تصوروه معرضا « للروح المطلقة » وهي تفض مضمونها على مر الزمان اللامتناهي ومن قالوا بالثانية تصوروه دوائر ، اما مقفلة هي الحضارات المختلفة او دوائر يفضي بعضها الى بعض ولها عودات .

ومن خلال العديد من المدارس اثيرت مشاكل فلسفة التاريخ، وأولها نسبية التاريخ وثانيها مشكلة العلية وثالثها مشكلة التقدم

والتخلف في مجرى التاريخ وهل هناك خط للتقدم مستمر قدما أو ثمَّ تقدم وتخلف دون قاعدة أو قانون ورابعها امكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ ، ومنهم من ذهب الى التفاؤل ومنهم من ذهب الى التشاؤم وبعضهم الثالث زعم انه بمعزل عن كليهما .

لقد دخل على التاريخ من معطيات العلوم والبحوث الجديدة ما جعله يطرق مجالات لم يكن له شأن بها ودخل في الاتجاه والشمول ما جعله يأخذ طريقه في العمق فصار يهتم بالشعوب لا الافراد وبالقواعد الشعبية الواسعة لا القمم والملوك ثم اصبح في القرنين الماضيين برجوازي المنطلق وقد تحول الآن فصار ، بالضرورة ، شعبيا ، كما انصرف اهتمامه الى العوامل والتيارات التحتية والخفية ، ولم يعد الحادث التاريخي هو الحادث السكوني الثابت بل أصبح في ديناميكية تحولية متصلة الحلقات .

التأويل المادي للتاريخ :

ان التغيرات في شكل الانتاج الاقتصادي والتصادم بين الفئات الناجم عن تلك التغيرات انما هو عامل تقريري حاسم في تاريخ الانسان . ان مجال التاريخ خاضع « لضرورة » تكشف عن ذاتها عبر جملة من الاحداث الطارئة التي تكون تجربتنا اليومية اما هذه الضرورة في أعماقها فهي ضرورة اقتصادية . وبما ان الضرورة الاقتصادية هي التي تسيطر على التاريخ فان افعال البشر قد تعمل بانسجام مع تلك الضرورة أو ضدها فيكون مآلها ان تصبح عديمة المفعول ، وذلك ان الافعال الانسانية لا تصبح ذات مفعول الا اذا عملت بالانسجام مع تلك الضرورة ، اما التطور الاقتصادي للمجتمع

الذي يلعب فيه التوسع المستمر لقوى الانتاج دور الدافع والمحرك فانه لا يسير سيرا سهلا وانما ينمو بفضل تعارض او تناحر لا ينقطع بين قوى الانتاج من جهة وبين علاقات الانتاج المقيدة الزاجرة او الاشكال القانونية من جهة أخرى .

ودعوى التاريخ ، في الجدل الماركسي ، هي دعوى تستقر فيها موضوعيا جميع الفترات التي اوجدتها دعوى سابقة ولكنها تحتوي بذاتها على بداية التطور المقبل . ويرى هذا الجدل اعتبار الوحدة في التناقض (وبخاصة التناقض الموضوعي ــ الذاتي او الشروط الموضوعية والممارسة الثورية) ويتجلى ذلك في كل مظهر وبالتالي في العلاقات التي تقوم بين شتى المظاهر والسمات .

وعندما كان ماركس يفكر في التطور وديناميكية التاريخ لم ينطلق من شكل معين من الانتاج ولكن من الناس انفسهم : « لقد بدأ البشر يتميزون عن العجماوات منذ ان شرعوا في انتاج وسائل الحياة ، انتاج حياتهم المادية بطريقة غير مباشرة » . وبهذه المثابة فالانسان الفرد تاريخي في جوهره لانه يعيش في الزمان ويتجدد بأحوال وظروف معينة ووجوده عملية زمنية تتجدد بالميلاد والموت وتتألف من سلسلة متصلة الحلقات تتألف من ماض وحاضر ومستقبل . وتجري هذه العملية في اطار علاقته مع الآخرين وعلاقاته مع الطبيعة . فاذا كان الفرد كذلك فان العلاقات بين الافراد هي ايضا علاقات تاريخية وحياة الانسان حياة تاريخية وعالم الانسان هو عالم التاريخ أو الصيرورة . واذا كانت حياة الانسان منذ كان عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام فيها ، فان الانسان ، اذن ، يصبح ابنا للماضي بأسره وثمرة هذا الماضي برمته وهو يصنع

التاريخ والتاريخ بدوره يصنعه في جدلية حياتية لا تنتهي . والانسان في تفاعله مع التاريخ موجه وموجَه لان سير التاريخ تحركه فكرة النشوء والارتقاء ، وهي الفكرة التي تحرك كل الخليقة نحو انسانية أكمل تخلق لنفسها في كل مرحلة من مراحل مسيرها الى الامام الاطار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الملائم لوضعها ونضجها في حركة تطورية جدلية يستمر بها الخلق ، فتاريخ الانسان هو الانسان وبالتالي فان جذور الانسان هي الانسان نفسه .

وثمة ثبات نسبي في السنن الطبيعية وتطور للظواهر الحية في وقت معا ، جدلية الاصرار على أن في التكوين اسبابا لا بد بالغة غاياتها وان الكائنات الحية وبخاصة الانسان في تطور متماد لا يقف وان ذلك الثبات وهذا التطور مترابطان معا متزاوجان في نسق ومسيرة جدلية . وهكذا تسود حركة جدلية بين الانسان والتاريخ فالتاريخ يصنع الانسان ويكفيه والانسان هو الذي يصوغ التاريخ ويصوره .

ويرى ماركس في كتابه « رأس المال » ان نقطة الانطلاق هي العمل الذي يعود بكليته الى الانسان ويرى ان ما يميز اسوأ مهندس من ابرع نحلة هو ان المهندس يبني الخلية في رأسه قبل ان يبني الخلية في الواقع والنتيجة التي ينتهي اليها الصانع توجد مسبقا في مخيلته فهو يحقق هدفه الخاص الذي وعاه والذي يحدد ، كقانون ، طريقة عمله المشفوعة بارادته .

ومن ذلك ان الكائن انما يتميز بكونه غير محدد كليا بالشروط الموضوعية وان جدله النوعي لا يرد الى دورية اعادة الانتاج ولكنه يدخل بين الحاجة والشروط الموضوعية وساطة مشروع .

ولكن كيف يمكن ، انطلاقا من نوعية العمل الانساني ، ان تنطور ، من خلال الفاعلية الاجتماعية التي يمارسها الناس لتأمين شروط وجودهم ، علاقات معينة في كل فترة تشرط بدورها جانبا من هذه الشروط الموضوعية وتصبح «الطبيعةالثانية» التي يصنعها الانسان ويتلاقى ، من خلالها ، جدل العمل وجدل التاريخ .

« ان الناس يصنعون تاريخهم الخاص ضمن شروط يجدونها سابقة لهم ومعطاة وموروثة من الماضي » .

ومقتضى ذلك أن الصيرورة تصبح ممكنة وظهور الجديد هو، في الوقت نفسه ، تقدم ، تقدم يصبح المظهر الاول ، من خلاله ، مظهرا رئيسيا عن طريق قفزة نوعية تتناسب مع الممارسة التي تقوم بها الطبقة الموعودة بالمستقبل حتى الوصول الى مجتمع لا طبقات فيه ، وعندها يتم الانتقال من عصر الضرورة الى عصر الحرية ونهاية ما قبل التاريخ . وبذلك تدخل القوى الغريبة والموضوعية ، التي تحكم التاريخ حتى اليوم ، في نطاق رقابة الناس واعتبارا من ذلك الحين يصنع الناس بملء وعيهم ، تاريخهم والاسباب الاجتماعية التي يضعونها قيد الفعل يمكن ان تبلغ ، بنسب متزايدة ، الاهداف المرجوة .

صفحتان امام الانسان في مواجهة التاريخ : الشروط الموضوعية التي صنعت الانسان في فترة معينة من التاريخ وصفحة الانسان الصانع ـ المطور لهذه الشروط ، طبيعة مطبوعة وطبيعة تترك طابعها وميسمها .

ولا يوجد سوى واقع تاريخي هو جماع الممارسة الاجتماعية التي تتلبس وجهي الطبقة والجماهير . ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذين الوجهين ؟ ان ما هو حقيقي وصحيح ينصرف الى ان اوضاع الطبقة تشكل القاعدة الموضوعية لحركة الجماهير وهي الحركة التي تستقر في الشروط الموضوعية لحاجات الطبقة وتطلعاتها . والجماهير ليست افرادا منعزلين وانما جماعة او جماعات لها مشروع واحد ولا يمكن لهذا المشروع ان يقوم الا على اساس من الاوضاع والشروط المشتركة . ويتم ذلك عن طريق انتقال الطبقة ، بذاتها ولذاتها ومن خلال الممارسة ، الى واقع آخر . ولا يعني ذلك مجرد الانتقال الاقتصادي ـ السياسي ، وانما تتكون الذات على أساس من الشروط القائمة ويسرى ذلك الى المجالات كافة من اقتصادية وسياسية وايديولوجية .

وتكون الذات هذا هو تدرج معقد تتخلله الصراعات والنكسات ويرتكز على الشرائط الطبقية ولكنه يعمل بشكل من الاستقلال والانقطاع عنها ، واستقلال الذات هذا بالنسبة الى تلك الشرائط، يستحيل الى شكل من القوة المادية التي « تصنع التاريخ » .

ان فكرة الكلية تبقى تصورا جديا فنحن لا نستطيع ان نرى الكل بيد اننا نعيش فيه ونحن لا نستطيع التصرف فيه كما نهوى ولكننا نرتب فيه حياتنا والتاريخ في مجموعه لا يتكرر انه تاريخي حقا وليس طبيعيا وتبقى الفكرة القائلة بوجود كل منظم فيه لكل ظاهرة مكانتها الخاصة بها وليس في هذا مجموع من المصادفات بل كل الخصائص الارضية تندرج في الوحدة الاساسية .

وليس ثمة وحدة في التاريخ العام وانما ينشد الانسان الوحدة

دون ان يدركها ومزج الانسانية كلها في وحدة هو حد التاريخ بمعنى ان هذه الوحدة لو تحققت لانتهى التاريخ .

ابن خلـدون :

وليست هذه المفاهيم في مراميها العامة بغريبة عن تراثنـا ، فابن خلدون يقول في مقدمته :

« اذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبـدل الخلق من اصلـه وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديـد ونشأة مستأنفة وعـالم محـدث » .

ويقول في موضع آخر قولا ينم على فهمه العلاقة الجدليـة التي تربط الانسان بتاريخه :

« حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانسانـي الذي هو عمران العالم وما يعرض بطبيعة ذلـك العمران من الاحوال مثـل التوحش والتأنس والعصبيات واصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ من ذلك من الملك والدول ومراقيها وما ينتحلـه البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنـائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال » .

كما اهتدى ابن خلدون الى ان التاريخ لا يعيد نفسه واوضح ذلك ايضاحا لا لبس فيه فكتب يقول :

« من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبـدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوي شـديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يفطن له الا الآحاد من اهل الخليقة ، وذلك أن احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والازمان والاعصار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار » .

ويعتمد ابن خلدون في استنتاجاته على الحضارات العـديدة البائدة او القائمة في زمانه ليدلل على أن التاريـخ ليس تكرارا او عودا متواصلا على بدء وانما هو تطور وهذا الخلق لا يزال يرتقي في سلم **« التدرج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة »** كمـا انه فطن الى حقيقة الوعي الذي لا يحظى به الا الآحاد لان الانسـانية كانت قديما تساق الى مصيرهـا في غيبوبة بين اليقظـة والوعي ، ويزداد وعيها وضوحا اكثر فأكثر ، فالتاريخ اذن هو وعي التطور والاضطلاع به والانسـان هو الكائـن الذي بفضله ينقلب التطـور الشامل لكل الطبيعة تاريخا بالمعنى الاصطلاحي .

وبحق قال ايف لاكوست : **« قبـل القرن التاسع عشر لـم يكتب لاحد ان يفوق « توسيديد » سوى ابن خلدون فالاول قـد اخترع التاريخ وعلى يد الثاني اكتسى هذا التاريخ صيغته العلمية» .**

دور الفرد البارز من خلال تأويل التاريخ :

لم يعد المرء ، في أيامنا ، بحاجة لان يقف طويلا امام ما جاء به

« كارليل » في تعظيمه من شأن الرجل البارز ولا امام مشايعه وتابعه « فريدريك أومز » وهو من اكثر دعاة التأويل البطولي للتاريخ غلواً بعده ، اذ ان جميع الذين يرون انه ما من تبـدل اجتماعي طرأ لم يكن من صنع رجال عظام وان « تلقائيات » اليـوم التي تجعل ذلك ممكنا هي نتيجـة الافعال والامثال التي فعلهـا وسنها الافراد البارزون لا يصمدون امام الحجة القاطعة وهـي انه مهما تكن اسماء الافراد التي تقترن بتلك الحركات او الاعمال العظيمة فليست هناك بينة على انه لم يكن بالامكان الاستغناء عن أولئك الافراد ، بمعنى ان تلك الحركات والاعمال ما كانت لتحدث بدونهـم .

ولم يؤد رد الفعل حيال « المذهب البطولي الكارليلي » فـي القرن التاسع عشر الى انكار ضرورة وجود البطل والفعل البطولي في التاريخ حتى ولا الى انكار ضرورة البطل والفعل البطولي ولكن ما قال به رد الفعل ذاك هو ان الاحداث التي ادى اليها مثل ذلـك الفعل البطولي قد تقررت بواسطة النواميس التاريخية في الفترة التي ظهر فيها البطل او بواسطة احتياجات تلك الفترة ، وقـد اختلف المفكرون والفلاسفة في وصفهم هذه الاحتياجات الملحـة الضاغطة فقيل انها احتياجات « ميتافيزيقية » أو « مثاليـة » أو « سياسية » او « اقتصادية » ، ويمكن استعمال تعبير «احتياجات اجتماعية » ليشمل جميع تلك الاصناف .

ولعل الانموذج الكامل للتفسير المثالي يرجع الى « هيجـل » فالرجل العظيم ، في نظره كما في نظر « اشبنجلر » الذي يحذو حذوه في هذا الشأن ليس نتاج الاحوال المادية او الاجتماعيـة او

البيولوجية بل انه في المقام الاول تعبير عن «روح» العالم في زمنه او انه « روح » حضارته ، والرجال العظام لا يصنعون التاريخ ويكيفونه اذ تستدعيهم « الازمنة العظيمة » ، اما الازمنة العظيمة فهي تلك الفترات الانتقالية التي ينهض فيها الجنس البشري من مستوى ما من مستويات الحرية والتنظيم الى مستوى غيره . ولم يكن انتصار يوليوس قيصر انتصارا شخصيا بل كل حافزا لا واعيا هو الذي هيأ تحقيق ماكان قد نضج الزمن من اجله . وهذه هي حال جميع الرجال التاريخيين العظام الذين تنطوي اهدافهم الخاصة على تلك القضايا الكبرى التي هي ارادة روح العالم .

ان نشاط البطل يجب ان يفهم ليس كفعل صادر عن فرد ضد بيئة وانما كعملية متفاعلة حتميا ، عملية صادرة من جانب من جوانب الحضارة ومتعلقة بالجوانب الاخرى اي ان الانسان لا يستطيع ان يفعل الا ماتسمح به حضارته ولكن الحضارة ، وهذا حكم قاطع، لاتسمح الا باتجاه واحد للتطور وليس هنالك من احتمالات اخرى أصيلة لذلك . ويرى هيجل ان **«امجاد الارادة انما هي اوراق يابسة ولم تكن يوما بأوراق خضراء»** .

ان النظرية الميتافيزيقية القائلة بوحدانية الكون وبكونه جوهرا واحداً تكشف عواقبها ، بالنسبة للتاريخ ، عن ضعف واضح . ذلك لانها تنطوي على القول بعدم وجود امكانات واحتمالات موضوعية في التاريخ كما أنها تشير الى ان المستقبل هو كائن فعلي ولكنه لم يولد بعد وان امر الجهد الانساني سواء بذل أو لم يبذل هو أمر محتوم مقدر سلفا وان الفعل الانساني لايستطيع ان يغير شيئا مما هو قيد

التكوين فالامر كما قال هيجل **« مثل بومــة منيرفا لاتبدأ طيرانهـا الا بعد أن تكون ظلال الغسق قد خيمت على الكون »** .

أما «هربرت سبنسر » الــذي كان متأثــرا بنظريــة النشوء والارتقاء فهو ينطلق ، في تقدير دور الرجل البارز ، مــن التطــور الاجتماعي الذي يفترض ان جميع المجتمعات قد نمت بشكل موحد وتاريخي وتقدمي حثيث ويرى سبنسر أن المرء اذا شــاء ان يدرك ويفهم فوارق التطور الاجتماعي فانه لن يصل الى ذلك عن طريــق الانكباب على قراءة سير جميع الحكام العظام في التاريخ . وعــلى المجتمع ان يكوّن العظيم قبــل ان يستطيع الرجــل العظيــم اعادة تكوين المجتمــع .

وفي مصطرع الآراء والنظريات كانت الماركسيــة في تأويلهــا المادي للتاريخ مطالبة بحكم العلمية التي تملكها ان تواجه هذه المعضلة وان تقدم لها الحل الذي يفترض ان يكون اصح الحلول واكثرهــا اقناعا لانها تعتمد سير التاريخ والصيرورة والكلية والجدل من خلال استقراء الماضي وتصور المستقبل . ورغم ان هذه المسألة واجهت المفكرين الماركسيين منذ البداية فان تكامل حلها لا يزال قيد التفاعل الذي تغتني فيه النظرية بمزيد من العمق والاحــاطة والشمول . ولم تنكر الماركسية دور الرجال العظام في التاريخ فــلا هي انكرت وجودهم ولا هي انكرت اهميتهم التاريخية . وقد تصدى «انجلز» للموضوع ولكن الباحث الذي تلاه والذي تناولــه تناولا شاملا في معالجة ذكية أريبــة هو بليخانوف .

لقد بحث بليخانوف مشكلة البطــل في التاريــخ في كثير مــن

مؤلفاته وبخاصة في كتابه القيم « دور الفرد في التاريخ » وقد كانت مشكلة دور الفرد في التاريخ ، في زمنـه ، مشكلـة حادة وراهنـة بشكل فريد بالنسبة الى الماركسيين الروس الذين كان بليخانوف زعيم مفكريهم النظريين المعترف به . ولم تكن حادة كمشكلة نظرية فحسب بل كذلك كمشكلة عملية وسياسية . وقد كان البرنامـج السياسي والفلسفة السياسية لحزب « الشعبيين » الاشتراكيين الروس مؤسسا على الراي القائل إنه بالامكان التأثير في التاريـخ ، باسلوب عام ، بواسطة ابطال الفكر وحتى أبطال الفعل ، وقدرفض هذا الفريق كما فعل خلفه « الحزب الثوري الاشتراكـي » الآراء الماركسية حول الضرورة والتطور الاجتماعي وعلق أهميـة اعظـم على القرارات الشخصية والخلقية دونما انكار لنفوذ العوامل المادية والاجتماعية والاقتصادية كما رفض التخلي عن الارهـاب الفردي كسياسة تهدف الى محاربة الاضطهاد . وبذلك اعتبر هذا الفريق أصحاب المراكز العليـا وليس النظام الذي ولدهم مسئولين عن الشرور الاجتماعية والافراط في العناد السياسي . وهكذا قام بليخانوف يناصبهم العداء على الصعيدين النظري والعملي واضعا أحسن معالجاته للموضوع في مؤلفه الآنف الذكر .

ورد بليخانوف على النظريات التي تفصل بطريقـة كيفية ، مختلف اشكال الحياة ، بعضها عن بعض ، لتقننها على شكل قوى خاصة تشد ، من وجهات مختلفة وبدرجات متفاوتة من النجاح ، الانسان الاجتماعي في طريق التقدم . كما اعاد الى المادية التاريخية معناها الحقيقي بازالة مالحق به من تشويه وتحريف .

لقـد رفض بليخانوف آراء المدافعين عن التأويـل البطولـي للتاريخ وكذلك آراء الجبريين الذيـن انتهوا ، لـدى معارضتهـم

اصحاب التأويل البطولي للتاريخ ، الى ان الفرد « كمية مهملة » في التاريخ . وقد رفض بليخانوف آراء الفريقين لان كليهما ضرب صفحا عن مشكلة على جانب عظيم من الاهمية ليس بالنسبة الى الماركسيين فقط بل كذلك بالنسبة الى أي فهم علمي للتاريخ .

واصر بليخانوف على الرأي القائل بأن مفهوما ماديا عن الارادة ينسجم مع أكثر الفاعليات العملية نشاطا وان جميع التعاليم التي اقتضت ، في الماضي ، المزيد من الارادة البشرية افترضت مبدئيا عدم أهلية هذه الارادة . واستبعاد ماتواضع الناس على تسميته بحرية الاختيار يؤول بالضرورة الى الجبرية . ولكن ، حتى هذه الجبرية ، لاتشل الارادة ولا تقعدها اذ تصبح في بعض الاحيان الاساس النفسي الضروري للعمل . ومن الخطأ الاعتقاد بأن الاقتناع بحتمية وقوع حادث مايقتل فينا كل مكنة نفسية للمساهمة فيه او معارضته .

واساس الحل لديه هو ان الحرية هي ضرورة في شكلها الواعي ، ولا يستطيع الفرد أن يفصم عرى هذا التوافق بين الحرية والضرورة ولا يمكن للمرء أن يشعر بوطأة الضرورة والزامها لان غياب الحرية هذا ليس في الوقت ذاته سوى التعبير التام عنها والمتضمن لها . ولا يتم الوصول الى هذا المفهوم الا بتجاوز الثنائية وادراك الحقيقة الهامة القائلة بأن لاوجود بين الذات والموضوع لتلك الهوة السحيقة التي يفترضها الثنائيون . ان الفرد الخاضع للضرورة التاريخية انما يستمد هذه الصفة لامن مجرد وعيه لها فحسب بل بسبب صفاته الاخلاقية والعقلية المنبثقة عن هذا الوضع . وبما ان وضع الفرد الاجتماعي يحبوه هذه الخليقة لاغيرها

فسبيله الا يكون اداة هذه الضرورة ورهينها فحسب بل يود بشوق ان يكون ذلك ولا يسعه ابتغاء وجه آخر . وهذا مظهر من مظاهر الحرية المتولدة عن الضرورة او بعبارة أدق الحرية المتماثلة مع الضرورة او الضرورة التي استحالت حرية . يقول هيجل :

« تستحيل الضرورة الى حرية لا لأنها تتوارى بل للسبب الأوحد وهو ان « تماثلهما » الداخلي الكامن قد تجلى أخيرا . »

ان وعي الضرورة الملازمة لحادث ماليس من شأنه الا ان يزيد في طاقة الشخص الذي يواجه هذا الحادث فيتجاوب معه ويعتبره احدى القوى التي تحدد وجوده. فاذا تربص هذا الرجل بعد أن وعى الضرورة التي تحدد هذا الحادث وشبك ذراعيه ووقف يتأمله فانه يبرهن على جهل فاضح بالرياضيات. ولكن كيف يؤثر الشعور بضرورة وقوع حادث ما على رجل قوي الشكيمة ينظر اليه شذرا ويناصبه العداء ؟ ان الامور تتحول هنا قليلا عن مجراها اذ يمكن كثيرا أن يضائل هذا الشعور القدرة على المقاومة متى اقتنع معارضو الحادث بأنه ضرورة لامحيص عنها . ويتم ذلك عندما تصبح الملابسات المظاهرة له وفيرة نافذة الاثر . ان الشعور بحتمية وقوع حادث وانعدام المقاومة لدى معارضيه ليس سوى تعبير عن قوة الاسباب المظاهرة له والتي تطوي في عدادها الشعور بالعجز الذي يحسه هؤلاء المعارضون . غير ان القدرة على المقاومة لاتتضاءل عند جميع معارضي الحادث بل تزيد لدى بعضهم بتأثير من شعورهم بحتمية وقوعه ، في قدرتهم على المقاومة وتكون هذه المقاومة عندئذ عبارة عن مقاومة اليأس .

ويعيد بليخانوف القول بأن الشروط التاريخية العامة اقوى

من الافراد الاقوياء ، وتغدو سمة العصر بالنسبة الى الرجل العظيم « ضرورة معطاة تجريبا » ، ويشكل كل عمل يتحقق حادثا تاريخيا.
فبم اذن تمتاز هذه الاحداث عن الأحداث التي تتم من تلقاء نفسها؟ والحقيقة هي ان كل حادث تاريخي يؤمن ، على وجه التأكيد ، لبعض الناس اجتناء الثمار اليانعة من التطور السابق كما ان هذا الحادث ، في الوقت نفسه ، حلقة في سلسلة الحوادث التي تهيء ثمار المستقبل .

ويشير بليخانوف الى ان الافراد بفضل الخصائص والميزات التي يتمتعون بها يمكنهم ان يؤثروا في مصير المجتمع ويمكن ان يكون أثرهم ملحوظا . الا ان امكان حدوث هذا التأثير واتساعه أو مداه محدودان بتنظيم المجتمع وبعلاقات القوى الاجتماعية ــ الاقتصادية. ان سجايا الفرد ليست « عاملا » من عوامل التطور الاجتماعي الا بمقدار ما تسمح بذلك العلاقات الاجتماعية ويبقى هذا العامل ماسمحت به هذه العلاقات وبالشكل الذي اباحته . ولا يستطيع الفرد ابراز مواهبه الا عندما يحتل في المجتمع مكانا ييسر له ذلك ، والتنظيم الاجتماعي هو الذي يحدد في كل حين الدور وبالتالي الاهمية الاجتماعية التي يمكن أن توسد الى بعض الشخصيات الموهوبة أو عديمة الأهلية .

ولكن الا يتعارض القول بأثر الفرد في سياق الاحداث مع المقولة التي تعتبر التاريخ أو التطور الاجتماعي خاضعا لقوانين محددة ملزمة ؟ والجواب على ذلك هو ان هذا الدور لايتعارض والمفهوم المشار اليه وانما هو وجه من أوجه التعبير البارزة عنه .

وتجدر الاشارة الى ان امكان تأثير الفرد في المجتمع ، هذا الامكـان الذي يجدده التنظيم الاجتماعي ، يفتح الباب واسعـا أمـام تأثير مايسمى « المصادفات » ، على المصير التاريخي للشعوب . ويمكـن لهذه المصادفات أن تترك أثرها في مستقبل الشعب أو الامـة . وهناك ايضا الأسباب العرضية أو الطارئة التي تنشأ عن الافـراد وعن صفاتهم ومؤهلاتهم أو عن زوالهم . لذلك فان مصائـر الأمـم تتوقف أحيانا على حوادث عارضة تمكن تسميتهـا بالحوادث مـن الدرجة الثانية . وقد كان هيجل يقول : **« كل ماهو تام ينطوي على عنصر من عناصر المصادفة »** .

ولكن ألا ينفي ذلك امكان المعرفة العلمية للحوادث ويجيب بليخانوف بالنفي لان المصادفة أو الحادث العرضي ليس بالحادث غير المسبب ، وبسبب الصفـة النسبية التي يـرد اليهـا الحادث العرضي او المصادفة فلا يظهر الا في نقطة التقاطع او التصالب لظاهرات التطور الضرورية . وتظل المصادفة ، تبعا لذلك ، محصلة قوتين أو تقابل حالين أو تفاعـل موقفين . ولذلك لايمكن التنبـؤ بنقطة التقاطع هذه من خلال النواميس التي تقرر وتحتم ايـة من سلاسل الاحداث أو تلك السلاسل مجتمعة . والظاهرات الناجمة عن المصادفة أو الخصائص الفردية التي يتسم بها الرجال البارزون هي اظهر وابين من الاسباب العامـة التي يقتضي كشفهـا الغوص في الاعمـاق .

وخصائص الفرد الشخصية تجعل صاحبها اقدر على تحقيق الحاجات الاجتماعية الناشئة عن العلاقات الاقتصاديـة القائمـة او معارضتها . ويمكن للافراد ذوي النفوذ ، بفضل خصائصهم

الفكرية وبفضل صفاتهم الذاتية ، ان يبدلوا في الملامح التي تتلبسها الاحداث وبوسعهم أيضا تغيير نتائجها الخاصة ولكنهم لايستطيعون تغيير الاتجاه العام المحدد بقوى اخرى . وحتى يتمكن الفرد من الاستئثار بدوره التاريخي من خلال السلطة التي صارت اليه ، فسبيل الهيئة الاجتماعية ان تمنع هذا الامكان عن سواه ، وبذلك تتراءى لنا الشخصيات التاريخية أحيانا محاطة بهالة من القدرة والنفوذ الذاتيين المبالغ فيهما على خلاف مايحدث في مجال التطور الثقافي اذ يندر ان يطمس نجاح فرد المعي المعية فرد آخر . وفي كلا الحالتين فان الطلب الاجتماعي هو الذي يستشير المستعدين للتصدي له ، فاذا اخفق احدهم أو قعد به العزم عن ذلك تصدى له آخر تلو آخر .

وثمة شرطان لابد من توافرهما حتى يتمكن شخص موهوب ، يتمتع بخلال معينة ، من ان يحدث بواسطتها تأثيرا عميقا في سياق الاحداث فينبغي له ان يستجيب ، بفضل مواهبه ، اكثر من سواه لحاجات الفترة الزمنية الاجتماعية وينبغي لهذا النظام الاجتماعي القائم الا يقف عائقا أمام الفرد ذي الاهلية المطابقة لما تستدعيه الفترة الزمنية. ويظهر الرجال الموهوبون حيثما تكون الشروط الاجتماعية ملائمة لنموهم ، وهذا يعود بنا الى القول بأن كل موهبة تظهر ، أي تصبح قوة اجتماعية هي ثمرة العلاقات الاجتماعية . ونستطيع عندها أن ندرك لماذا لايتمكن الرجال الموهوبون البارزون الا من تعديل السمات الخاصة للاحداث لا سياقها العام وذلك لان هؤلاء الرجال أنفسهم لايوجدون الا بفضل هذا السياق العام نفسه ولولاه لما كان بمستطاعهم ان يتخطوا العقبة التي تفصل الممكن عن الواقع .

ان موت أو زوال شخصيـة بارزة في مجـال السياســة أو الثقافة بخاصة يمكن ان يؤثر على النتائج ولكن التأثير يكون بالغـا عندما يعجز السياق الاجتماعي عن استثارة كفاءات مماثلة . ويعد الرجل عظيما لانه يتحلى بصفات تجعله اقدر من الآخرين علـى الاستجابة للضرورات الاجتماعية العظيمة تلك الحاجات التي تتأتى عن الاسباب العامة والخاصة . وينوه بليخانوف في خاتمـة كتابـه بأن ميدان العمل لاينفسح أمام الرجـال العظمـاء فحسب وانمـا ينفسح امام جميع الناس .

* * *

يبدو لنا ، من جميع المدارس التي عالجت موضوع الاوضاع الاجتماعية ، تصميم عام هو ان الرجل البارز أو العظيم لايستطيع التأثير في التاريخ مالم يكن مؤاتيا له وما لم تكن الاوقات « يانعـة » تمكنه من ذلك .

ولا بد لحالة المجتمع ، أي مجتمع ، في برهة معينة ان يكون ما كان عليه قبل ان يكون لأي مخلوق معين ماكان له من تأثير في البرهة التي تلت تلك البرهة المعينة . ولكن لايترتب على ذلك ، بحـال من الاحوال ، بأنه كان لابد لأي شخص معين ان يؤثر في المجتمع بسبب قيام ذلك المجتمع في عالم الوجود وبسبب حالته .

وما دمنا نؤمن بمبدأ الضرورة وبأن الانسان يستهدف النشوء والارتقاء ، وبأن تطور المجتمع له سنن حتمية لايخرج عليها ، وهـو مايستقى من ماضي الانسان الحضاري والدلالات التي استخلصت منه ، وما دمنا نعتبر البنية الأساسية تقوم على درجة تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وكلاهما يحدد الوجود الاجتماعي للانسان، فلا بد لنا ، حذر الوقوع في الجبرية المطلقة ، من القاء بعض الضوء

على حدود ومعالم ما نود ادراكه من اثر الضرورةهذهووطأتها ، ولا سيما وان الانسانية ، وان كان بالوسع ان تؤخذ ككل على سبيل التعميم والتجريد ، فهي تنطوي على مجتمعات مختلفة وامم وشعوب وقبائل تتعارف وتتناكر ولا يخضع منطق تطورها لدواعيها الذاتية فحسب وانما هي فاعلة متفاعلة مع العوامل الخارجية او نقاط التقاطع التي كان من شأنها في حالات كثيرة من الماضي البعيد والقريب أن قضت على شعوب فاختفت من مسرح التاريخ أو منعتها أن تستأنف شوطها بمنطق تطورها الخاص ، كل ذلك يتقاضانا ان نحدد ابعاد هذه الضرورة من خلال الغاية التي نستهدفها من هذا البحث .

يتوقف الحجم النسبي للاشياء على بعد هذه الاشياء عن مركز الرؤية ، وهنا يفرض علينا هذا السؤال : ماهو البعدالصحيح الذي يجب ان ننظر منه الى التاريخ ؟ تمكننا مثلا كتابة سيرةواضحة لحضارة كاملة وباختصار شديد دون الاستشهاد بالنفوذ العلي (نسبة الى علة) للشخصيات البارزة او دونما اشارة الى الحوادث الاخرى التي يمكن أن تطرأ ولكن لايترتب على تاريخأية فترة محدودة من حضارة مايمكن ان يستغنى عن ذكر نفوذ تلك الشخصيات الفعال وآثار تلك الحوادث الطارئة .

ويستشهد بعض الباحثين بقصة مستشاري الامبراطور الصيني الذين قالوا لامبراطورهم العجوز الذي كلفهم ، في مطلع حكمه ، ان يخترقوا الحجب الى « سر » الانسان فقد جاء هؤلاء المستشارون الى ملكهم وهو على فراش الموت وابلغوه بأن الانسان «يولد ويعيش ويعاني ويموت » . وهذه النتيجة تبقى صحيحة اذا غيرنا أية تفاصيل من حياة أي انسان سواء جعلناه ملكا ام رئيسا أم شحاذا

أم صعلوكا وسواء جعلناه مقاتلا أم قديسا فانه انسان يولد ويعيش ويعاني ويموت .

ان مثل هذه التأملات تنطبق على الحالة الانسانية التي يمكن لأي مخلوق أن يحل فيها محل الآخر الا انها تصبح معدومة القيمة اذا طبقت على سيرة انسان معين الا حينمـا تحملنـا السيرة علـى التصديق بأنه كان أكثر من رجل . والأمر كذلك عن طريق معالجة الحضارات كوحدات كاملة أو على أساس ان التاريخ ليس له صانع وانما هو سياق طبيعي انساني يحكمه صراع الطبقات أي عن طريق محاولة تفسير جميع الظاهرات وشرحها على أساس أنها كلية شاملة بحد ذاتها .

ان الاحداث التاريخية هي آخر الامر احداث انسانية ومـن ثم فان حقائق التاريخ ، بعكس حقائق العلوم الطبيعية ، تستدعي ان تتضافر عدة اسباب للوصول الى نتيجة مـا ، ولكن الاسبـاب نفسها قد لا تؤدي الى النتيجة نفسها في ظروف أخرى ، كذلك فان سببا ما قد يؤدي الى نتيجة في مكان ما ثم يؤدي ، هو بعينه ، الى نتيجة أخرى في مكان آخر ،والسبب في ذلك كله هو تدخل العامل البشري . فالانسان هو الوحدة التي يدور التاريخ من حولها وكل جهد يحاول به صاحبه ان يعزل فئة من الناس خارج تاريخ الانسان انما هو جهد عبث لاغناء فيه . وفضلا عن ذلك فالانسان الفرد ـ أي انسان ـ له ارادة حرة وله ميول واهواء واتجاهات وهذه كلها تدخل في التاريخ حين يصنع وربما حين يكتب .

سواء اكانت الحوادث صغيرة أم كبيرة محسوسـة أم غيـر محسوسة قصيرة ام طويلة فان الجامع بينها هو ان الحال قبلها

يختلف عنه بعد وقوعها ، فالعالم قبل نابليون يختلف عن العالم بعده والدنيا بعد ثورة اكتوبر تختلف عنها قبلها وكذلك الدنيا بعد الحرب العالمية الثانية كما ان الفكر الانساني قبل ماركس وانجلز ولينين يختلف عنه بعدهم ... وهكذا فالعبرة في الحوادث التي هي مادة التاريخ هي ان يحصل تغيير في الاحوال سواء أكان كبيرا أم صغيرا محليا أم عالميا . وحوادث التاريخ ، اذن ، هي تغيرات والحادث ، اذن ، هو التغيير . واذا اردنا ان نتبين اهمية حادث ما فنحن نقارن الاحوال قبله وبعده وعلى هذا الاساس فنحن نعتبر ظهور من نسميهم عظماء الرجال او صناع التاريخ حوادث فيوليوس قيصر او الاسكندر حادث وكذلك خالد بن الوليد ... الخ واذا اعتبرنا كلا من اولئك الرجال حادثا فنحن نأخذه في مجموعه وننظر الى حجم التغيير الذي احدثه في مسيرة البشر .

وهذه النظرة لاتمنعنا من التفكير مليا في أن التغير في حقيقة الامر مستمر وهو لايتوقف على مجهود اشخاص باعيانهم وهذا التغير يحدث نتيجة لسير الزمن نفسه تقول سيمون دي بوفوار : **« ان اقوى عامل في حياتنا هو ذلك الشيء الذي لايحس ولا يرى ولا يدرك له وزن ألا وهو الزمن »** . واذا استطعنا أن نتصور أن الزمن يمكن أن يتوقف لرأينا أن الحوادث هي الاخرى يمكن أن تتوقف والحق أن الشاعر الذي قال :

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب

لم يفطن الى عمق الحقيقة التي توصل اليها في هذا البيت .

السببية والمصادفة والطارىء واللامنظور :

انا مضطرون لأن نعترف بأن في مسيرة التاريخ وبالتالي فيما

يمكن أن تكون عليه قوانين التاريخ ، جانبا واضحا متروكا للفعل الحر ، جانبا لاتحدد زمانه ومكانه وابعاده الاسباب التي تقع تحت معقوليتنا . ان افعال الانسان في الماضي وان كانت تخضع الى حتمية معقدة الحدود فانها في الوقت نفسه تحوي عناصر من «حرية التصرف» كانت تفاجئنا في كثير من الاحيان ، الا اننا لا نستطيع ونحن في اطار السببية الحتمية الا ان نضع ذلك موضع الاحتمال من سلم العوامل والاسباب والا أن نقرر أن ثمة امكانات معقولة كثيرة في عدد كبير من الاحيان لم تحدث رغم معقوليتها ، واحدة منها فقط حدثت بفعل المصادفة ، احتمال واحد جرى وماتت الاحتمالات الباقية . ولنتأمل انتصار « قطز »على المغول في عين جالوت ونجاة صلاح الدين ثلاث مرات من الاغتيال . . فكيف تقوم العلاقة السببية الحتمية ما بين الواقع والاحتمال العبثي الرواغ ؟ السببية في التاريخ هي ، في الواقع ، محاولة الكشف لا عن « السبب » ولكن عن تلك المجموعة المركبة من الاسباب والعوامل الكامنة في كل حدث ووجود المصادفة في التاريخ أمر غير قابل للانكار . يقول « فيفر » : **« ليس ثمة ضرورات حتمية ثمة دوما امكانات فقط والانسان باعتباره سيد امكاناته هو الحكم الذي يحدد استخدامها »** .

فهل تكون المصادفة هي جهلنا بأسباب الاحداث ؟ قد يصح ذلك بمقدار ولكن هناك مصادفات واضحة الأسباب وهي من نوع آخر تنشأ عن تقاطع وقائع مستقل بعضها عن بعض . وكثير من الاحداث التي وقعت في تقاطع الحاجات والغايات ، في اكثر من مجتمع ، لم تكن حتمية وانما احتمالية . ويقف كثير من الباحثين أمام ظاهرة النازية كحل احتمالي كان يمكن ان يقوم بديل له يختلف عنه في كثير من السمات والدوافع . صحيح ان هتلر ليس الا النتجة

الناجمة عن علة الاضطراب الاساسية في زمنــه الا وهي الاخفــاق في ايجاد الانسجام بين علاقات الانتاج الاجتماعية وقوى الانتــاج الموسعة ولكن الم تشهد هذه الظاهرة مجتمعات اخرى وعالجتهـا بشكل آخر وانتهت الى نتائج مماثلة أو مقاربــة .

ولكن اين مكان المصادفــة أو الطاريء من خــلال الحتميــة الضرورية ؟ ان معنى المصادفة أو الطاريء هو ان يكون شيئا معلوما او موجودا ولكن وجوده غير ضروري منطقيا كما ان عدم وجوده ليس مستحيلا منطقيا اي ان الطاريء يأتي في غير محله وبمعنى آخر فان الحادث هو طاريء اذا وقع نتيجة تلاحم سلسلتين من الاحــداث موصوفتين بقوانين متنافرة .

السؤال الكبير :

السؤال الكبير هو : هل السير الاســاسي للفعــل التاريخي والتطور الاجتماعي هو حرفيا خط سير حتمي لامناص منــه أم انه ليس كذلك ؟ واذا كان كذلك فان كل زعامة قامت او ستقوم هــي عنصر ثانوي مساعد في تقرير الطابع الاساسي والتاريخي في الماضي والحاضر والمستقبل . واذا لم يكن حتما فان الامر يكاد يسأل ذاته: الى أي مدى تكون فيه سجية زعامة معينة مسئولة سببيا ومسئولة أدبيا عن هذا الوضع او ذاك او الى اية درجة وفي ايــة انواع مــن الحالات يكون من المشروع القول ان الزعامة تقرر الاتجاهات التاريخية التي تواجهها واي نوع من الحالات يكون من المشروع فيه القول انها لاتفعل ذلك ، أي نوع يمكن قصره عليها ، على وجه التفرد والامتياز واي نوع يمكن أن يتم على يد زعماء أو أفراد آخرين ؟

ولا يثور اختلاف كبير حول مزايا او سجايا الزعماء صانعي التاريخ فمن المتفق عليه ان العبقرية شيء فريد ليس له مقياس كمي ، ومقياس عظمة البطل يكمن في درجة شعوره ووعيه لما دعي للقيام به .

القضية هي قضية ماإذا كان من الممكن ان نعزو الى عمل شخصيات ذات مواهب او مراكز فريدة الفضل في تلك التغييرات الواسعة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تميز العهود التاريخية ، او الفضل في تلك الاحداث التي هي نقاط تحول في التاريخ . والظاهرة ، كيما تكون تاريخية ، يجب ان تكون فريدة ولا يمكن استبدال غيرها بها ولا يمكن تكرارها ، فكل ماهو عظيم هو ظاهرة انفصال وانقطاع .

والدور الذي اعطيناه للرجل البارز أو البطل أو العظيم ، لايكتفي برجال الفكر او الفعل فحسب ، وان يكن من غير المستبعد ان يكون ابطال الفكر في الوقت نفسه ابطال الفعل وصانعي احداث، بل ينصرف بصورة رئيسية الى البطل صانع الاحداث اي الذي يترك طابع شخصيته الايجابي على التاريخ وهو طابع يظل ظاهرا للعيان بعد ان يختفي صاحبه عن مسرح الاحداث . وكذلك يجب التمييز بين الشخصيات التاريخية الشهيرة القادرة على أن تحمل الناس على الايمان بها وبين الافراد الذين أثروا في الاحداث دون ان يحققوا لانفسهم شهرة شعبية عظيمة . كما يجب استبعاد مفهوم البطل كرجل صالح أخلاقيا ، وليس ذلك لان الاحكام الاخلاقية غير مشروعة في التاريخ ولكن لأن بعض الاشرار،أخلاقيا ،

قد حققوا شطرا كبيرا في التاريخ ، فما يهم في هذا الشأن هو عملية تكوين التاريـــخ .

ويعاودنا السؤال الكبير بشكل اكثر دقة وتحديدا : هل كان خليقا بالشيء الذي نعتبره هاما ان يحدث على كل الاحوال مهما يكن نوع الفرد الذي يؤثر في الاحداث التي أدت الى ذلك الشيء ؟ وهـــل من الصحيح اطلاقا القول ان فردا كان ، بصورة رئيسية ، مسئولا عن وقوع ذلك الحدث الهام او عن عدم وقوعه ؟ ان ذلك يقودنا الى الفارق بين الرجل كرجل احداث في التاريخ والرجل كصانع احداث في التاريخ أي الفرق بين الرجل الذي يكون في وضع يؤثر في الاحداث وآخر يفضل طاقاته وملكاته وذكائه الحاد وارادته القوية وشخصيته يربط بنفسه الحدث ويرتبط به . وهذا التمييز يحاول ان يعدل في الحكم على الاعتقاد العام بأن البطل هو عظيم ليس فقط بسبب مايفعل ولكن بفضل سجاياه وماهيته .

لقد اشرنا آنفا الى ان الفعل البطولي لا يمكن ان يعتبر حاسما الا عندما تسمح الحالة التاريخية بوجود سبل متعددة كبرى يسير عليها مجرى التاريخ ، ومجرى التطور أو التاريخ هذا يجب ألا يفهم على انه تطور الانسانية او الحضارات او الانسان والا فاننـــا ننتهي الى كلية عامة لاتجيب على الغاية من هذا البحث أو كل بحث مماثل وذلك لان عمر الانسان وجهد الانسان وسعيه محدودة بينما عمـــر الانسانية وجهد الانسانية وسعيها و « عقلها » لايعرف الحدود .

ان احتمال وجود بدائل ، في حالة تاريخية معينة ، محلية أو عالمية ولفترة انسانية محددة ، هو افتراض مسبق لفعـــل بطولـــي هام. أما النقطة ذات الاهمية الشاملة بالنسبة لأغراضنا فهي التحقق

من وجود مثل بدائل التطور تلك ومن طبيعتها ومدى ديمومتها . اما الموقف الذي اتخذناه حتى الآن فهو يلزمنا بالايمان بأنه كان ولا يزال ، في التاريخ ، مثل تلك البدائل مشفوعة بنتائج متناقضة معها ولكنها ربما كانت قد اعادت تقرير مجرى الاحداث في الماضي ولربما قررت مجرى الاحداث في المستقبل . ومن المقرر وجود حدود للامكانات ، بما فيها حدود التأثير الممكن والمحتمل للفعل البطولي استنادا الى التسليم بالاوصاف المعممة التي تصف نواميس السلوك الاجتماعي .

وحينما يقوم بديل حقيقي فان الوجود الفاعل الايجابي لرجل عظيم ربما يكون حاسما ، لان عناصر اخرى تشترك في تقرير النزاع بين البدائل وقد تكون تلك العناصر اثقل وزنا من عنصر الشخصية . وحينما نكون في وضع يمكننا من التأكيد على ان رجلا صانعا للاحداث كان له نفوذ حاسم ، في فترة تاريخية معينة ، فاننا لانتخلى عن الايمان بالعلاقة السببية ولا نعتنق ايمانا بالطارىء المطلق ، وانما السبيل هو الملاحظة بأن اتجاها جوهريا او رئيسيا كان من شأنه ألا يتحقق لولا وجود هذه الشخصية .

يكون الوضع احيانا اهم من الرجل كما يكون الرجل احيانا أهم من الوضع وذلك تبعا لما يتاح له من حرية وبذلك تزداد أهميته أو تتضاءل . وعندما يتحقق نصر عظيم فان جميع سلاسل النتائج المترتبة عليه تبرز الى الوجود كما لو انها لم تتوقف اطلاقا .

وتبرز هنا فرضية : ماذا لو عملت سلاسل الأسباب الاخرى التي لاتكف عن الحدوث فمات البطل الموعود بحادث عرضي أو

مرضي ؟ماذا يحدث عند ذلك ؟ هل يقف الطلب الاجتماعي داعيا فلا مجيب لندائه ؟ هنا لابد من تقدير مدى الاستجابة فاذا كانت درجة الوعي والكفاءة والارادة متمكنة من نفر آخر فسيأخذ فرد بارز آخر مكانه فاذا لم يكن هناك فرد آخر تتوافر فيه الصفات اللازمة ليلتقط الكرة ويصوبها في اللحظة المناسبة فيحدث ما يسمى بالفرص الضائعة . ونادرا ما تغلق عواقب الفرصة المضاعة ابواب الخيار في المستقبل ولكنها تضيق من فرجة هذه الابواب فلا يبقى مجال كبير للاختيار الا بين بدائل ملائمة نسبيا ، بالقياس الى احتمالات كانت قائمة قبل ضياع الفرصة . وثمة سؤال أخير هل يكون الرجل البديل مساويا تماما للاصل ؟ والجواب قد لايكون نسخة طبق الاصل ، قد يكون احسن قليلا أو أسوأ قليلا . ودرجة ماهي عليه خلاله ومزاياه ووعيه ... لابد ان تترك سمتها على الاحداث ان خيرا وان شرا . وفي مثل هذه الحال قد يكون بمكنة الفرد ان يدفع بوعيه الى الاحساس بالحاجات التي تلمسها قبل غيره وقد يجهضها .

الفعل التاريخي من خلال الوعي والارادة والرغبة :

الغاية النې يفترض في الانسان ان يخدمها هي غاية تستنبط وتؤول من الغاية التي يحددها ويحققها لان البشر لايصنعون التاريخ الا اذا كانت لهم أغراض وغايات .

وكثير من الشخصيات التاريخية البارزة لم تع الا قليلا أو وعت وعيا ناقصا المكان الخطير الحافل الذي كانت تحتله في

التاريخ ومع ذلك لعبت دورها في مسيرة الانسان والمجتمعات .

ورغم ان جوهر التاريخ يقتضي الا يتم أمر دون تصميم واع ودون غاية مرجوة فان فهم التاريخ يستدعي المضي ابعد من ذلك وما ذاك الا لان الارادات الفردية عندما تدخل حيز العمل تنتهي أحيانا كثيرة الى نتائج غير ماتوخته ، ولهذا فان دوافعها ليس لها سوى أهمية ثانوية بالنسبة الى النتيجة الاجمالية وتبقى معرفة أية قوى محركة تتوارى خلف هذه الدوافع .

ان جوهر الماركسية العلمي يقوم على استقلال القوى المحركة الحقيقية في التاريخ بالقياس الى الوعي (النفسي) الذي يمتلكه الناس . وفي اشكال المعرفة البدائية كان هذا الاستقلال يتجلى ، في الواقع ، بالطريقة التي كان الناس ، من خلالها ، ينظرون الى هذه القوى على انها شكل من اشكال الطبيعة التي يلاحظونها وعلى ان القوانين التي تحكمها هي ضرب من قوانين الطبيعة (الازلية) .. ولم ينتبه الناس الى ادراك الصفة التاريخية لهذه الاشكال الا بعد زمن طويل حفل بجميع النظريات التي تناولت مصادر السلطة والمعين الذي تمتح منه والدور الذي تقوم به .

وكل عمل يقوم به الناس يعونه ، ولا ريب ، ولكن هناك فرقا بين وعي صحيح ووعي قاصر أو زائف أو تاعس ، ومع ذلك فأيا كان شكل الوعي فقد لعب دوره في سياق التاريخ . لقد أخذ الصراع الطبقي ، في المجتمعات القديمة ، شكل الصراع بين المدينين والدائنين وهذه العلاقة النقدية كانت تنطوي على تفاوت اقتصادي اي تعارض في شروط الحياة أعمق من ذلك بكثير كما ان وعي الدولة كحقيقة كان يخفي وجه الطبقة في المجتمعات القديمة ويمنعه ان يتجلى ويبرز ،

لذلك لم يكن الوعي ليلتقط الا ظاهر العلاقات الحقوقية التي تأخذ تبعا لذلك تمام معناها ودورها .

ولكن التطور الذي واكب القرن الماضي والقرن الحالي رفع الوعي الى منزلة لم يكن بالفها فيما سلف من الازمان . جميع ما تم في دنيا الانسان انما هو صنيع الانسان : الحروب والثورات وتطور المجتمعات ، واذا كان ثمة من جديد فهو ان الفعل التاريخي اليوم لم يعد مجديا أو ناجعا مالم يرافقه الوعي ، ويتوافر عليه عدد من الناس ينطلقون من تحليل الواقع الموضوعي فيصوغون ، عن وعي ، الافكار والنظريات والخطط ووجهة السير . وتدخل الافكار والنظريات هذه في عداد الذاتي في حين ان الممارسة والفعل يترجمان عن الذاتي في الموضوعي وكلا النوعين يمثل (الفاعلية الواعية) وهي خصيصة تميز بها الانسان من الحيوان .

وطبيعة الانسان التي تستحضر الشامل المشخص او الكلي تحمل اليوم للوعي معنى جديدا . واذا كانت الفردية بمعناها الصحيح هي مجموع هذه العلاقات فان قيام الشخصية الفردية يعني اكتساب وعي هذه العلاقات . وهذه المعرفة ملاء الشخصية وصيرورتها لان العلاقات الضرورية عندما تعرف بضرورتها تتغير سماتها ، ووعي هذه الضرورة يجعل الجهد ناجعا ومحررا . ان علم القوانين الضرورية التي تحكم المجتمع جعلت من الممكن استخدامها، عن طريق تطور التقنية ، لصالح الانسان ، كما ان علم العلاقات الضرورية في الحياة الاجتماعية والمحصلات الضرورية للعلاقات الاجتماعية وأثرها على الانسان جعل ممكنا امتلاك الذات والتحويل الناجع للعلاقات الاجتماعية . وهكذا تصبح المعرفة اقتدارا اى

حرية . والتبدل الذي يطرأ على الشخصية والناشيء عن وعي هذه العلاقات هو ، في الوقت نفسه ، تبديل مجموع تلك العلاقات . وما من انسان يبدل من ذات نفسه او يغير الا في نطاق تبديله وتغييره المجموعة المعقدة للشروط والعلاقات التي يظل الانسان منها في مكان العقدة او واسطة العقد .

وعندما يرد الوعي الى الكلية الاجتماعية يتكشف ان الافكار والعواطف التي كان عليها الناس ، في موقف حياتي معين ، اذا ماتسنى لهم الاحاطة بها وبالمصالح التي تنجم عنها ، سواء بالنسبة الى الفعل المباشر او بالنسبة الى البنية المطابقة لهذه المصالح ، يتكشف لهم ان هذه العواطف وهذه الافكار وهذه المصالح الناشئة عنها تمضي كلية في شمولها عواطف وافكار ومصالح مجموع الطبقة او الشعب .

لقد كان هم البروليتاريا ان ترقب من خلال السياق الموضوعي للتطور ماالذي يسير وما الذي يحدث حتى تستخدمه لصالحها ، وهكذا ظلت « الضرورة » العنصر الموجه،وضعيا ، هذا التطور . ثم اصبح هذا الموقف ، فيما بعد ، عائقا وشيئا تجب مقاومته . وخطوة خطوة ومن خلال سياق التبدل والتغيير راح هذا العائق يتزحزح تباعا حتى يأتي اليوم الذي يستبعد فيه نهائيا . ان المعرفة الواضحة لما هو حقيقي ، لما يجب ان يحدث ، تبقى ، رغم كل شيء ، قائمة وتظل ، رغم كل شيء ، الشرط الحاسم والسلاح الاجدى للنضال .

وعلى القوانين بعامة وقوانين الاقتصاد بخاصة ان تصبح خادمة للمجتمع الذي يدار بوعي . ان التغاضي عن قوة الأشياء

حماقة وغباء ولكن ادراك هذه الحقيقة تجعل مقاومة الأشياء سبيلا الى ازاحتها أو تخطيها وليس مجرد الانقياد لها . ان قوانين الاقتصاد التي تحرك المجتمع ، متخطية عقول الناس ، ينبغي لها أن تتجلى او تعبر عن نفسها « ايديولوجيا » في عقول الناس بأشكال غير اقتصادية . وكما أن القوى الغريبة الموضوعية التي سادت التاريخ حتى اليوم تنتقل اليوم لتصبح تحت رقابة الانسان ، فان ما رافق حتى اليوم كمجرد ايديولوجية يمكن ان يصبح اليوم المضمون الخاص بالحياة الانسانية أي ولادة الانسان كانسان . يقول ماركس:

« يعتبر الناس ، في خلد التعاليم المادية ، نتاج الظروف والتربية وبالتالي فان البشر الذين طرأ عليهم التبدل هم نتاج ظروف وتربية متبدلة ، هذه التعاليم تنسى أن البشر ، على وجه التحديد والدقة ، هم الذين يبدلون الظروف وأن المربي بحاجة ، هو نفسه، لان يتربى » .

ان التغاضي عن شكل العلاقات الاجتماعية يؤدي الى جعل التاريخ نهبا لسيادة اللا معقول والقوى العمياء التي تتجسد اما في « روح الشعب » واما في « الرجال العظام » ، وعندها لا يدرك التاريخ عقلانيا وانما ذرائعيا .

وفي هذا الاطار توضع الشخصيات التاريخية ، فالشخصية التاريخية لا يمكن أن تفسر من وجهة نظر العالم النفسي وحده ذلك لان ملامحها العقلية والاخلاقية هي نتاج تفاعل مستمر بين قواها النظرية والعقلية وبين الاحوال الاجتماعية . وليست الاحوال الاجتماعية دائما مسوغة للعبقرية أو مساعدة لها فقد تكون ساحقة لها ولكنها عندما تكون مسوغة فان هناك حدودا لمدى امكانات الفعل

البطولي . ويمكننا الاستدلال على هذه الحدود بين المجموعة المركبة المتشابكة للتقاليد الاجتماعية والعادات والاعراف والادوات والمناهج العملية والتصادم بين مصالح الجماعات .

وما دامت المعرفة هي انعكاس الواقع أو الوقائع في العقل فعبقرية الرجل البارز هي القدرة على اكتشاف الروابط والقدرة على الشمولية وعلى شمول روابط الواقع الاجتماعي التاريخي والممارسة الانسانية الثورية ، ولعل ذلك ما ييسر له حرية العمل ويجعله على أحساس أو شعور بأن لديه خيارات أكثر من مناوئيه وأن له أكثر من وجهة مفتوحة على المستقبل ، وهذا ما يجعل مثل هذا الفرد صانع وعي وخالق نهضة وبالتالي مؤثرا في الاحداث .

ولكن ما من أمر عظيم يتم في التاريخ دون هوى أو شوق ولكن شوق الرجل العظيم الذي يطبع بطابعه الاحداث التاريخية لا يتم الا بتحسسه الحقائق المستقبلية وبقطعه مع الظروف الراهنة أو القائمة وباندماجه في الخط المشرع للمستقبل .

وهذا الشوق يأخذ شكل حقيقة أو فكرة يجد فيها الفرد الامتداد الادبي والاخلاقي لحاجاته ومتطلباته وغاياته ويصبح الوسيط لمجموع القوى التي تتحرك في الاتجاه التاريخي المصيري الذي يتبناه ويعمل له كما يصبح وسيطا لمسؤولية ليست مسؤوليته الشخصية الا بالقدر الذي يجسد فيها المصالح الجوهرية التي تناهت اليه. فثم تداخل بين الذاتية والكلية ، ولا تعدو حرية التصرف كونها الضرورة المتضمنة في ذلك التصرف لان الذاتية انما تمضي عبر الممارسة فتصبح موضوعية ، ما دام الفعل لا يتم في دنيا المجرد وانما يتم خلل عملية تاريخية تحققها الخلال الذاتية ومن ثم

الموضوعية قبل ان تترجم عن مسيرتها الجدلية حيث تتلاقى الفكرة أو الحقيقة او المثل الاعلى مع الواقع كما تتلاقى الحرية والضرورة مفضيتين الى تركيب جديد يعبر عنه بالحدث التاريخي ٠

واذا كانت ارادة كل انسان حرة حرية مطلقة بمعنى انه اذا كان بوسعه أن يفعل ما يريد فلن يكون التاريخ الا سلسلة من المصادفات لا تشدها الى بعضها لحمة أو وشيجة ، واذا جاز ذلك فمعناه أن المضي في هذا المنطق حتى غايته تقويض لكل امكان لوجود أي قانون عام للانسانية . ولئن كان ثمة قانون شامل ملزم يحكم أعمال الناس فلا يمكن أن يكون هناك خيار حر ، ولئن أخذنا الانسان كموضوع للملاحظة ، من أية وجهة نظر كانت : لاهوتية أو تاريخية أو اخلاقية او فلسفية نجد أن القانون العام للضرورة يحكمه كجميع الكائنات ولكن اذا تفحصناه على وجه مشخص ، في مجال وعينا ، فلا بد أن نستشعر بأنه كائن حر . لهذا كانت حرية خيار الفرد قائمة بطبيعتها على هذه الضرورة التي يستكين لها ثم ينفذ منها في عملية من الرضوخ والانعتاق تمثل معنى الحرية الانسانية العميق .

وموضوع التاريخ ليس الارادة وانما تمثيل هذه الارادة أو الشكل الذي تتلبسه ، والتاريخ يبحث في شكل التمثيل الذي أخذته الارادة والرغبة اللتان حققتا فيه حل مشكلة التعارض بين الحرية والضرورة ، ان العلاقة بين الحرية والارادة تتناقص او تتزايد تبعا للزاوية التي يتفحص منها الحادث أو الفعل ولكنهما تظلان متناظرتين عكسا ، وفي جميع الاحوال فان الحرية تزداد أو تنقص تبعا لزيادة أو نقصان مفهوم الضرورة المرتبط بوجهة نظر من يدقق في الحادث

أو يتفحصه . وأول قاعدة للدراسة هي العلاقة بين الانسان والعالم الذي يحيط به والتفهم الواضح لما يعايشه وكذلك العلاقة الآنية التي تشده الى العالم . وهكذا يتزايد أو يتناقص تمثيلنا للحرية او الضرورة تبعا للرابطة آلتي تشدنا الى العالم الخارجي .

وعلى اية حال فان الشروط الموضوعية لا تكفي وحدها لتقرر في الحرب ، مثلا ، النصر أو الهزيمة اذ لا بد من المجهود الذاتي، والمسرح الذي تجري فيه هذه الفاعلية انما يقوم على ما تسمح به الشروط الموضوعية وبذلك يتأكد الجدل الذاتي ـ الموضوعي للتاريخ ، فالشروط القائمة تضع حدودا للامكانات وعمل الناس يصنع التاريخ ، كما ان هذه الظروف هي نتاج الممارسة . وقد نستطيع ان نتنبأ بمجيء الثورة او الحرب ولكننا لا نستطيع دائما ان نتنبأ بعاقبة الثورة او الحرب فلقد تتوقف هذه العاقبة على درجة الوعي والارادة لدى الناس وكذلك سجايا ومناقب وارادة الشخصيات القيادية البارزة .

وكل عمل يستدعي الارادة ويستدعي الظروف المشخصة أو الموضوعية فتعبئة الشعب مثلا تصبح من الشروط الموضوعية لان الشعب هو القوة المحركة وهو صانع التاريخ العام ، والجماهير، مع قادتها ، هي التي تصنع التاريخ ولكن اذا كانت الشروط الموضوعية غير مهيئة تاريخيا أو أن الجماهير أو قادتها لم تحسن أو لم تتمكن من أن يكون لها وعي ثقافي مشترك فان الحركة قد تجهض حتى ولو كانت معززة بشهادة تاريخية .

الفرد البارز ومفهوم السلطة :

ولكن أنى للفرد أن يحدث كل هذا الأثر ؟

اذا تجاوزنا المرحلة الانسانية التي كان فيها الحكام يستمدون عصمتهم من مفاهيم دينية وبالتالي يشعرون الرعية بأن أعمالهم مرضي عنها ومستوحاة من سلطة عليا نجد أن نفوذ الرجال البارزين مستمد من مفهوم السلطةاو الثورة كسلطةمشاقةحتى تستحيل بدورها الى سلطة تمثلها الدولة .

واذا وضعنا المزايا الشخصية في حيزها الصحيح نجد أن السلطة مستمدة من طبيعة شكل الدولة أو العلاقات الاجتماعية بما فيها العلاقة بين الجماهير والرجل الذي تسلم مقاليد تصريفالامور فالدولة هي قمة الهرم في البيئة الفوقية والقائد أو الملك أو الزعيم الذي يتسنم ذروتها او ذروة الشكل الجديد للسلطة المشاققة يجسد ذاتيا وموضوعيا الشكل القائم أو المنشود من العلاقات وهي علاقات موضوعية وبناها بنى أساسية .

ان وصول انسان الى السلطة يخضع لاعتبارات شتى تبعا للمرحلة التاريخية أو المستوىالاجتماعي ـ الاقتصاديوالحضاري. ولكن ما يعنينا ، بالنسبة الى الفرد البارز ، هو مفهوم السلطة لديه والرؤية التي يسرت له أن يكون له دور في سياق الاحداث.

والسلطة على صعيد المفهوم التجربي لا تعدو كونها علاقة تبعية بين ارادة شخص او اشخاص يفصحون عنها وتنفيذ هذه الارادة من قبل أناس آخرين ، وحتى تنفذ هذه الارادة يقتضي الامر ان يعبر هذا الشخص البارز أو ذاك ، بارادته ، عن أمر قابل للتنفيذ وأن يعرف مسبقا ما هو ممكن وما هو مستحيل فضلا عن مراعاته جزئيات وتفاصيل لا حصر لها . وبما ان الحادث ، في حال نجاحه ، يلغي ضمنا ما يعارضه اجتماعيا فمن الطبيعي أن تتوارى

تلك الاحتمالات فلا يبقى أمامنا الا الحادث والارادة التي افصحت عن نفسها بمباشرته واتيانه .

ان الشخص البارز يدخل نفسه في حلبة الحادث التاريخي بحكم ما له من سلطة فهو آمر ومشارك والعلاقة بين الآمر والمأمور هي ما تمكن تسميته بالسلطة المعبر عنها بالدولة بكل ما تحتمله هذه الكلمة من مضامين ومعان . والشخصية هذه عندما تؤخذ بمفردها تحمل في ذاتها بعض الاعتبارات التيتبدو انها قادت فاعليتها الماضية وانها تبرز فاعليتها الحاضرة وتقودها في مشاريعها المقبلة .

الفرد البارز والديمقراطية :

يذهب بعض الباحثين الى انه اذا كان البطل يعرف انه فرد صانع للاحداث يقرر من جديد مجرى التاريخ فانه يترتب على ذلك أن يأخذ المجتمع الديمقراطي حذره منه بشكل دائم .

ففي المجتمع الديمقراطي بالذات لا تستطيع الزعامة ان تنتحل لنفسها سلطة بطولية ، ففي فترات محددة قانونا يجب على الحكومة أن تستمد اجازة بقائها من الموافقة التي يعطيها الشعب المحكوم عطاء حرا .

وكما كان « التيرانوس » (المستبدون) في بلاد اليونان القديمة يحوزون سلطة الفرد بالبيعة لانهم صرفوا بلاء ما كما فعل أهل طيبة مع « أوديب » عندما ولوه عليهم كملك أو « تيرانوس» . فكثيرا ما تتخلى الشعوب عن الديمقراطية بتركيز أشواقها وآمالها في شخص واحد تختاره أو يختار لها ثم توافق عليه . ولكن ، في غالب الاحيان ، عندما تزول الديمقراطية فان المنافع التي من أجلها

ضحي بالديمقراطية تتدهور من حيث النوعيـــة دون ان تصبـــح مضمونة أكثر من ذي قبل .

وعليه فان مفهوم الرجل البارز في ظل الديمقراطية يتحول قليلا او كثيرا عن معناه التاريخي فالابطال في الدولة الديمقراطية يجب أن يكونوا رجال الرأي والتبصر الاجتماعي والانجازات العلمية والطاقات الفنية والادبية ذلك لان هؤلاء الرجال هم الذين يصوغون مثل المواطنين الفكرية العليا وآراءهم الاجتماعية والذين لايستطيعون أن يحققوا الثمرة المرجوة من الديمقراطية بـدون المعرفة والادراك الحسي المتسارع والذوق الرفيع .

ومن شأن الديمقراطية وواجبها أن تشجع الاعتقاد بأن الجميع مدعوون لجلائل الاعمال وان كلهم قد يختارون لها ومن شأن ذلك زيادة الجهود الاضافية التي غالبا ما تحول الوعـد الى حقيقـــة منجزة .

نظرة عامة الى دور الفرد البارز من خلال الصيرورة والكلية والجـدل :

ان عصرنا ينظر الى الموضوع نظرة اكمل واشمل مما عرفته عصور الانسانية فيما غبر من أيامها . انه عصر الجماهير ، عصـر الوعي الطبقي ، وعي الطبقة التي قدر لها موضوعيا ان تلغي ماينا فيها لتنتقل الى مجتمع لا طبقات فيه ، عصر الفكر وقد تسلح بالجدل من خلال الصيرورة والكلية ليحل مشكلة التعارض بين الحريـــة والضرورة ، بين الذاتي والموضوعي ، بين الفعل الارادي والفعـــل الحتمي ، بين النظرية والممارسة .. فالمشكلة وان حافظت علـى الاساس الذي قامت عليه يزداد وعيها وحلها غوصا في الاعماق اعماق المجتمع والانسان والفكر .

وأي مجتمع ، اذا أخذ ككل أو كبنى اجتماعية متمايزةمتكاملة تقوم فيه علاقة محدودة بين الناس على مستوى معين من تطورهم التاريخي ويتم وعيها والوصول الى تكوين مفهوم عنها ، ولهذا السبب فان حركة المجتمع الانساني نفسها يمكن الوقوف عليها من خلال قوانينها الداخلية كنتاج للناس انفسهم وفي الوقت نفسه كنتاج للقوى التي انبثقت عن علاقاتهم والتي نأت عن رقابتهم .

وما من امر يتم في عالم الانسان خارجا عن التاريخية والصيرورة ايا كان المنهج الفكري او الايديولوجي الذي يأخذ به الباحث . والانسان جزء من الطبيعة ولكن موقفه منها ليس موقفا تأمليا بل فاعلا ، اذ ليس هم الانسان تفسير العالم وتأويله فحسب وانما تبديله وتطويره ايضا. والمعرفة ليست مجرد تأمل وانتماءوانما هي رغبة وسلطة لتفسير العالم . وهذه الطبيعة التي يأخذ الانسان موقعه كجزء منها يظل له الاقتدار على تطويرها لانها ليست واقعا ساكنا سرمدي السكون ، فالحركة تتخللها والانسان صانع مسهم بقدر كبير ، في هذه الحركة وفي وعي التغيير الذي ينتاب الطبيعة . والسؤال الذي يطرح عن دور الانسان لايأخذ هنا الا معنى واحدا ، اذ يعني فقط مايمكن ان يصير اليه الانسان ، وبعبارة أدق ماهو مبلغ الحدود التي يظل فيها الانسان صانع نفسه . ولا يمكن ن تعرف فردية الانسان الا عن طريق مجموع العلاقات الفاعلةالتي يقيمها كل انسان مع اقرانه ومعالطبيعة. وكل فرد يشكل واقعا محدثا بمعنى ان الفرد ، بالمكان الذي يشغله من الطبيعة والتاريخ والمجتمع ، هو المحصلة الفريدة لمجموع هذه العلاقات ، ومثل هذا المفهوم هو الذي يعترف للفرد بأوفر قدر من التعقيد والثراء ، اذ لا تكفي معرفة العلاقات الراهنة في نظام معين ، بل تقتضي معرفتها من

خلال عملية الخلق . وبذلك لا يمثل الفرد منظومة العلاقات القائمة آنيا فحسب وانما يمثل ، في الوقت نفسه ، تاريخ هذه العلاقات التي اوجزت الماضي برمته . وهكذا لا يعود الفرد تجريدا او مجرد فكرة عامة جوفاء وانما حقيقة معقدة بوصفه المركز والعقدة من العلاقات النشطة في صيرورتها الدائمة . والعلاقات بين الافراد شأن العلاقات مع الطبيعة ليست علاقات آلية (ميكانيكية) وانما هي علاقات فاعلة ومتحركة .

ان الصيرورة التاريخية تلغي استقلال اللحظات والاوقات وسبيلها الى ذلك ان تضع ، امام المعرفة ، الكلية المشخصة للعالم التاريخي اي النشوء والارتقاء المشخصين الكليين نفسيهما كموضوع لمنهجية يمكن ادراكها . وفي الوقت نفسه فإن العلاقات بين النظرية والممارسة ، ومعها العلاقة بين الحرية والضرورة ، تأخذ وجهة اخرى فالواقع الذي صنعناه بأنفسنا يخلص عندئذ من اية صفة وهمية ، بدرجة أو بأخرى ، لقد صنعنا تاريخنا واذا كنا اكفياء لاعتبار الواقع بمثابة التاريخ فعندئذ نكون قد ارتفعنا الى صعيد يسمح بالتمكن من الواقع «كصنيع» انفسنا . وحدة الذات والموضوع ، الفكر والكائن ، التي أخذ « الفكر » على عاتقه امر البرهنة عليها واظهارها يجد هذا الفكر مكان تحقيقه فيها ويجد جوهره في الوحدة بين ما يصنعه الفكر بقوانينه وبين تاريخ الصيرورة الواقعية .

ان سيادة الحرية ليست هبة او هدية تحظى بها الانسانية الرازحة تحت نير الضرورة والتي تنالها جزاء ثباتها على الاحن او ثباتها لها او انها اعطية من اعطيات القدر ، الحرية ليست

الهدف فحسب وانما الوسيلة والسلاح في النضال وبذلك نلمس فيها الانسانية ، من خلال وعي الطبقة المدعوة لتسلم مركز الصدارة ان تأخذ في يدها وبوعي اعنة التاريخ . ولا تلغى ، تبعا لذلك ، « ضرورة » الارتقاء الاقتصادي الموضوعي ولكنها تأخذ جدة الوضع الاصلية والنوعية . إنها المرة الاولى التي تستطيع دورا جديدا مختلفا ووظيفة جديدة مختلفة .

وعندما تكشف نواة الكائن كصيرورة اجتماعية يمكن عندئذ ان يبرز الكائن الذي ظل غير واع هذه الحقيقة ، يمكن ان يبرز كنتاج للفاعلية الانسانية كما يمكن لهذه الفاعلية بدروها أن تبرز كعنصر حاسم في تطوير الكائن نفسه وتبديله وهكذا يصبح الانسان ذات الصيرورة وموضوعها وبذلك لا يعود كافيا ان ينعطف الفكر نحو الواقع فحسب بل يصبح لزاما على الواقع ان ينعطف نحو الفكر .

والكلية التي نعتمدها في سياق هذا البحث ليس معناها الكائن في صيرورة تمام العالم وانما كلية النشوء والارتقاء التي تجري عبر التجربة الاجتماعية والتاريخية كما تتكون وتكشف عن نفسها بالممارسة الاجتماعية ومن خلالها وبصراع الطبقات ومن خلاله ، انها جماع الاحداث المعروفة كلها التي ترد في التحليل الاخير الى كونها نتاج البشر وتسمى الكلية . والتاريخ تركيب باطن يرجع الى تحول الواقع البسيط للظواهر الجزئية ولكل مايمضي دون توقف وهو لا يصير تاريخا الا باتحاد الكلي مع الفردي بحيث يتخذ ، في ضوئه وكل صفاته ، اهمية لا يمكن الاستغناء عنها ويصير كليا على نحو ما ، اي عبورا يتحقق فيه الوجود .

ان اعتبار الظاهرات الاجتماعية من وجهة نظر فردية لا يمكن أن يقود الى الكلية واقصى ما يمكن بلوغه هو ادراك هذا المظهر او ذاك في مجال جزئي أو ادراك اجزاء متفرقة على شكل « احداث » لا رابطة بينها والى قوانين جزئية مجردة . ان الكلية لا يمكن ابرازها او عرضها الا اذا كانت الذات التي تعرضها كلية ايضا وحتى تعي الذات نفسها ينبغي لها ان تعي الموضوع ككلية. هذا وان النظرة الى الكلية كذات لا يمكن ان تستقيم الا للطبقات التي تمثلها في المجتمعات المعاصرة . وقد صحح ماركس آراء هيجل التي ظلت تحوم بين وجهتي نظر : « الرجل العظيم » و « الفكرة المجردة » عن الشعب .

وتدرك الكلية من خلال الجدل ولا يمكن ان تدرك بدونه ومنذ اللحظة التي تنكر فيها الكلية ، بداية ونهاية ، شرط المنهج الجدلي ومقتضاه ، منذ تلك اللحظة لا يفهم التطور او الثورة كلحظة ارتقاء ولكن كعمل منعزل عن التطور الكامل ، ويصبح صنع « النخبة » أو « القلة » .

* * *

ولا يمكننا ان نفهم دور الفرد البارز الا من خلال الصيرورة والكلية والجدل اذا اردنا ان يظل واقعه ودنياه واقع البشر ودنياهم . ان دور الفرد البارز وتمكنه من صنع الاحداث لا يتم في فراغ او عزلة وانما يتم من خلال الواقع التاريخي في تداخل جدلي متصل بالظروف الموضوعية وبالناس الذين يصنعون التاريخ . والفرد البارز من خلال هذه الجدلية ليس مشاهدا حياديا وليس مشاركا ومخمرا وفاعلا من خلال الكلية وبها فحسب ، مادام صعوده وارتقاؤه وتطور معرفته ، خلل التاريخ ليست سوى وجه من وجوه التطور والارتقاء الواقعيين .

ان رجل الفعل البارز هو الشخص الذي امتلك علم الممكن التاريخي وهو بوعيه هذا وسلطته وتمثيله للطبقة او مجموع الشعب يبدل الوسط اي جماع العلاقات التي يشكل كل فرد جزءا منها ويشغل فيها حيزه الثابت المتخير

وصورة الفرد البارز من خلال الواقع الجدلي ، اي من خلال التداخل بين دور الفرد او الافراد ، ومن خـلال القوى التي انبثقت عن علاقات الناس وخرجت عن رقابتهم ، تجعلنـا ننظر الى هذا الفرد البارز بوصفه يشكل جزءا من كل وهو يؤثر في هذا الكل بمقدار ما يستوعب تأثير الضرورة ، في الصيرورة والكلية ، ويتكيف بمقتضاه . فدور الفرد من هذة الكلية يظل ابدا سلبيا وايجابيا في آن واحد بالنسبة الى الكل وحركته هدامة ومحافظة معا بالنسبة الى الكل بحيث انه على علاقة بكل جزء من اجزاء هذه الكليـة الاجتماعية . وهو في ظـاهر اثره التاريخي نفي لهذا الكل واحتواء له بشكل جديد . وفي هذه العلاقة يعاد بناء الكل بالشكل الذي طبع الاحداث واسبغ على الفرد دوره واهميتـه .

والجبرية والقدرية (الارادية) لا تتعارضان الا في مفهوم غير جدلي وغير تاريخي . فتبعا للمفهوم الجدلي في التاريـخ فانهما قطبان يتحدان برابطة من التكامل المتبادل للانعكاسات في الفكر الذي يعبر عن نفسه بوضوح من خلالها .

وكل عمل او فعل هو بذاته ولذاته مزيج وتداخل من اعمال خاصة او فردية للرجال او الجماعات ولظروف موضوعية . ومن الخطأ ان ندرك هذا العمل او الفعل ونتملاه كصيرورة تاريخية واجتماعية « ضرورية » معللة بصورة كافية تماما او انه نتيجة

التمازج او التواصل المختلط لا يكسب معنى وواقعاً الا اذا أخذ من خلال الكلية التاريخية اي عن طريق وظيفته في سياق النشوء والارتقاء التاريخيين وعن طريق دوره الوسيط بين الماضي والمستقبل ، فهو يتناول الضرورة الجوهرية التي من خلالها يتم اللقاء بين النظرية والممارسة وبين الفردي والعام . بين الايديولوجية السائدة ونقيضها وبذلك يتاح لنفعل الذي يمارسه الفرد البارز ان يعدل ، بجانب تعديله في الاحداث . الشخصية المنطوية على هذه العلاقات .

وهذه الضرورة او اية ضرورة يستخلصها الفكر او يتخيلها لاتعيق سعي الرجل البارز ولا تؤود قصده ولا تغض من دوره لانه لولا هذه الضرورة،وهي نظام عام للحياة والكون وقانون للعقل ما أمكن ان يكون له حيزه او مكانه . وهذه الضرورة لاتحكم الفرد فحسب بل تحكم ، بالقدر نفسه ، الطبقات الاجتماعية التي تتعاون معها وتستجيب لدوافعها .

ان الفعل التاريخي انمايصدر عن الارادة البشرية ولكن هذه الارادة لاترتبط بالخيار الحر المجرد لان هذا الفعل ليس ابتداعا من الفكر الانساني . وعندما تستقر في الوعي ضرورة عمل مايصبح هذا الوعي هو الشرط المسبق والضروري للخطوات التالية : **« ان العالم يملك منذ عهد بعيد الحلم بشيء يكفيه وعيه حتى يمتلكه في الواقع »** . ومثل هذه العلاقة فقط بين الوعي والواقع هي التي تجعل ممكنا قيام الوحدة بين النظرية والممارسة، بين الفرد واثره في صنع الاحداث . وعندما ينطوي هذا الوعي على الخطوة الحاسمة التي يقتضيها سياق التطور التاريخي حتى يبلغ غايته ، اي عندما يقوم دور النظرية على ان يجعل ممكنا عملية هذه الخطوة ، عندها

ينبثق وضع تاريخي تصبح فيه المعرفة الصحيحة للمجتمع، بالنسبة لطبقة ما ولقادتها ، الشرط المباشر لتأكيد ذاتها في النضال والعمل. وعندما تصبح معرفة الذات ، بالنسبة لطبقة ما ولقادتها ، معرفة صحيحة للمجتمع كله ، وعندما تغدو هذه الطبقة وقادتها ، بواسطة هذه المعرفة ، ذات المعرفة وموضوعها ، تقوم النظرية عندها على امتلاك مباشر وملائم لتطور الثورة الاجتماعية ، وعندها تصبح ممكنة الوحدة بين النظر والعمل والانتقال من واقع الى آخر ومن مرحلة تاريخية الى اخرى وهنا يبرز في اللحظات الحاسمة دور الرجال البارزين .

* * *

ان مفهوم « الضرورة » المجرد يؤول الى الجبرية والجبرية الاجتماعية تفترض وقوع الاحداث حتما والزاما والمستحيل يصبح شيئا لم « يئن أوانه » . وقد تحدث لينين بحق بأنه لا يوجد موقف يكون بذاته وفي ذاته لا مآل له ولا مخرج منه. واستشهد، لتوضيح فكرته هذه، بالبرجوازية منوها بأن البرجوازية، في أي موقع او حال تكونه ، تتوافر لديها امكانات لايجاد الحلول ، وقد تكون هذه الحلول اقتصادية بحتة. ولكن الامر لا يقف عند ايجاد الحلول نظريا بل يقتضي ان توضع في مكانها من خلال الصيرورة والكلية فاذا ، خرجت هذه الحلول من عالم الاقتصاد النظري ووصلت الى الواقع، واقع النضال الطبقي ، يظهر عندئذ ماذا كانت هذه الحلول قادرة على ان تتحقق وتفرض نفسها . وكل طبقة اذا ظلت بمفردها وبذاتها يمكنها ان توجد الحلول ولكن هذه الحلول تتعثر عندما تكون امامها طبقة اخرى نشأت منها وتحاول ان تكون نقيضها والنفي التاريخي لها، لهذا فالحكم على هذه الحلول لا يمكن ان يستقيم النظر فيه الا من خلال الكلية .

وموقف الفرد البارز ، في تمثيله افكار عصره النامية وآمال ورغائب الطبقة التي ينتمي اليها لايخرج على هذا المعنى . ومن خلال هذا التوليف يمكن تقدير دوره وتقييم هذا الدور وتحليل ما قام به وما اخطأه وما وافق فيه الصيرورة او عاندها فيه ، واية قيم كان عليها وما هي حدود مسؤوليته في حال التقصير .

ان مفهوما مجردا عن الصيرورة ، كضرورة ، يؤول ايضا الى الجبرية كما ان مجرد الافتراض بأن بعض « الاخطاء »او «مهارة» بعض الافراد هي الاصل الوحيد للاخفاق او النجاح ، أمر لايمكن ان يقدم تحليلا كاملا وبالتالي لايمكن استخلاص العبر منه للمستقبل، لان ذلك يبدو ، بقدر ما ، « مصادفة » والمصادفات هي عوامل من الدرجة الثانية ، كما لو ان فلانا أو فلانا وجد تماما في هذا المكان أو ذاك فارتكب هذا الخطأ او ذاك أو قام بهذه المآثر او تلك . ان الاصرار على الاخطاء وحدها لايمكن ان يفضي الى غاية اكثر من التثبت من ان الشخص المعني لم يكن على مستوى الدور المنوط به ، والى شكل من الفهم للامور ، اذا كان صحيحا ، فله قيمته ، ولكنه يظل ثانويا بالنسبة لتحليل الواقع وتفحص سلاسل الاسباب المعقدة وتصور الوعي والفعل الخارجي في نقاط التقاطع .. الخ . كما ان الاهمية المبالغ فيها التي تنسب الى الدور الذي قام به بعض الافراد تدل على العجز عن « موضعة » دور هؤلاء الافراد وكفاءاتهم لدى قيامهم باعمالهم بشكل حاسم . ويدل هذا العجز ايضا على ان الحكم عليهم يقبل ، بقدر مماثل ، من الجبرية مايوازي أو يساوي الجبرية الموضوعية التي تحتوي الصيرورة كضرورة . واذا تجاوزنا وضع المسألة بالشكل المبسط واحيانا المشوه لحقيقة الواقع المعقد واذا رأينا في العمل الناضج الصحيح الذي قام به هؤلاء الافراد أو التقصير الذي بدر منهم، سببا يسهم في المجموع فنكون بذلك قد مضينا شوطا

ابعد من تأمل المبرر وتقديره والامكانات الذاتية لاعمالهم والتي بمقتضاها استطاعوا احتلال المناصب التي كانوا فيها ، الى دراسة الامكانات الموضوعية التي كانت بحوزتهم او قيد تصرفهم ، وعندئذ ينتقل الموضوع الى صعيد اعمق ، صعيد التنظيم السياسي والوعي العام ووعي الطبقة او الطليعة وتصادم الاحداث الداخلية والخارجية ... وبالتالي سلسلة العوامل التي يسرت وقوع الحادث التاريخي او حالت دونه ... وعندها يكون التقييم لدور الافراد اقرب الى الموضوعية لانه اخذ من خلال الكلية والصيرورة ودرجة الوعي ، وهو حكم يجتنب الكثير من عثار الفكر او الهوى ويجعل مواصلة الجهد لبلوغ ابعد الآمال او تدارك الفرص الضائعة امرا ممكنا .

نظرة عامة الى دور الفرد البارز من خلال واقعنا العربي الحديث :

وتظل لهذا الموضوع اهميته وآنيته كوجه من وجوه الحياة العامة حياة كل شعب فيما تولاه رجاله البارزون فأصابوا فيه او اخطأوا . ولا يزال تاريخنا الماضي بحاجة لان تعاد كتابته من وجهة نظر ابناء هذه العصر ويضارعه في الاهمية تاريخنا المعاصر والدور الذي لعبه فيه الرجال البارزون وتقييم ما قاموا به لان هذا الماضي القريب الصق بحاضرنا او اقرب الى العظة والعبرة والتأمل بغية مواصلة المسيرة . ولا ريب في ان معالجة هذه المشكلة ، في تاريخنا المعاصر ، امر يشجر حوله الخلاف ويستحر النقاش لتفرق الآراء والاهواء ، ولكن لاينبغي لذلك ان يصد الباحث عن حقيقة التاريخ القريب واثره في حياتنا الراهنة لاسيما وان ظاهرة خطيرة تستوقف النظر بدأت تلف عالم الفكر لدينا لاسباب لامجال هنا لاستقصائها الا وهي اغفال دور هؤلاء الرجال والتقليل من شأنهم او الانتقاص

من قدرهمأو تجاهلهم والتعفيةعلى آثارهم دون تحليلأو تدقيق وانما بحكم كيفي فردي المنزع مصلحي الغرض يخرج هؤلاء الافراد من حيز الاهتمام والتقدير والتقييم وحتى من التاريخ .

وان ما احاق بمعظم هؤلاء الرجال ليس سببا كافيا لهذا التجاهل او الانتقاص . لهذا لابد من اعادة النظر فيما أتوه وتمحيص ماتم تجاهله او الغض منه . واذا كانت ثمة كلمة عامة تقال ،انصافا للكثيرين من هؤلاء الرجال فهي ان الاحلام التي حملوها او حملت لهم لم يكن بالكافي وعيها حتى تتحقق بالفعل لان للفعل طريقه في وعي الطبقة كذات وموضوع للصيرورة ، وهو أمر التبس واقعا وانعكس في الفكر اشكالا فكان منه التردد وما يخلفه من وعي طبع بطابعه النفوس فلم تخرج عن حيز المراوحة ، وكان منه العجز وما اعقبه. لقد وقر في اذهان معظم هؤلاء الرجال العجز المسبق عن التأثير في الاحداث بله صنعها اضافة لما كانوا يمثلونه من وعي مضطرب او غائم او متخلف فوقعوا ضحية مؤثرين لا قصورهم الذاتي وقصور الوعي العام واضطرابه وتشوهه وذلك لان طبقة جديدة ما لم تعلن في عالمنا عن سر وجودها الكامل لتشكل بوجودها الواقعي ووعيها الانحلال الفعلي للنظام او الانظمة التي سبقتها ، وبالتالي لم تستقم لها نظرية هادية تكشف عن حقيقتها ومراميها . ولم يرتبط هؤلاء الرجال بالتحول او الثورة او بالرغبة في احدهما الا بروابط واهية غير مفهومة لم تكن في جوهرها الا التعبير الواقعي عن الفكر المشوش المضطرب لمعنى الصيرورة مأخوذة بشكل ذرائعي لاعقلاني حاول من خلاله هؤلاء الرجال التوفيق بين المتناقضات من خلال حلول او ردود فعل تعمل وكأنها مجموعة من المصادفات .

لقد مر هؤلاء الرجال كالطيف او الكابوس،فيخيال جيل يتلو

جيلا لا يشعر بالاستمرارية قدر شعوره بالانقطاع والانفصام. وككل الاحلام التي لم تتحقق او الاحلام المزعجة او احلام جحا التي نصفها صدق ونصفها كذب ، ينأى الانسان عن استعادتها او الاشارة اليها في حين ان الحاجة الزمنية تملي بشأنها غير مايمليه الاحساس المباشر ، ولا بد من استعادتها وتحليلها لانها مرحلة من حياة الامة وان تكن لها نواقصها ومنغصاتها ، وهي تمثل مرحلة من مراحل تطور الوعي العام الذي يحتاج ، بدوره الى التحليل والتقييم حتى يستقيم امره على شكل اصح وادق واصفى ، ولان الحاضر لا يلغي الماضي فالماضي بعد من ابعاده وانما يتجاوزه جدليا باسقاط مارث منه واستبقاء ما يعين على مواصلة الطريق .

ينبغي لصورة اولئك الرجال ان تظل قيد التأمل والتمحيص فأية ظروف موضوعية اطلعتهم واية امكانات كانت لديهم واية اخطاء ارتكبوها حالت دون نجاحهم وهل كانت تلك الاخطاء من الجسامة بحيث بدلت من سياق الاحداث وكيف تم ذلك ، ولم انعدمت القدرة على عدم تمكينهم من ارتكابها ، وفي الحال المقابلة لماذا قعدت بهم همتهم عن بلوغ ما كانوا يرجونه مع استجماعهم الرغبة والطموح والرؤية الصحيحة وما هو مكان الحادث العارض او الطاريء او الاحداث الخارجية او المصادفة في تبديل بعض السمات الاساسية أو الجزئية لما كان يؤمل لسياق الاحداث . وتبعا لذلك فلا مناص من التعرف على جميع الظواهر الايجابية والسلبية وربطها ربطا جدليا بالسياق التاريخي في ملابساته المعقدة وابراز العلاقة الجدلية بين اثر الفرد واثر الظروف الموضوعية لوضع الاحداث موضعها من الكلية والصيرورة التاريخية .

ان ظاهرة تحميل هؤلاء الافراد المسئولية كلها ومن ثم

استبعادهم من منال الفكر والتقدير وتناسي ما كان لهم من دور أو أثر امر ينم على ظاهرة سلبية او مرضية تشبه فقدان الذاكرة ، والطب النفسي يعطينا صورة عن الاختلال الذي يعتري المصابين بذلك ، وليس الاثر بأمل ضررا في حياة الامم والشعوب . وفضلا عن ذلك فهذه الظاهرة تخفي وراءها داء امض وادهى اذ تنطوي على النظرة الى هؤلاء الافراد بمعزل عن التنظيم السياسي الذي كانوا يتولونه أو الجماعات التي كانت تظاهرهم أو كانوا يمثلونها. وقد اعطت الحياة أكثر من دليل ، بلغ حد اليقين ، على ان تلك البنيات التي قاموا عليها كانت تحمل بذور الوعي القاصر نفسه والعجز والتردد نفسيهما وكانت تحمل بذور الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء القادة . وزوال هؤلاء القادة عن مسرح الاحداث ، بسبب أو بآخر ، لم يبدل من الامور شيئا ولم يقِ من الوقوع في أخطاء مماثلة او احتمال الوقوع فيها ، رغما عن ان بعضهم كان يتمتع بشعبية غامرة وبتأييد جماهيري كبير . وهذه الظاهرة تدعو لتأمل درجة الوعي التي بلغتها تلك الهيئات السياسية الوسيطة وحتى الجماهير نفسها وهو موضوع كبير ولكنه يظل جديرا بالدراسة وحاجة ملحة يقتضيها الحاضر كما يقتضيها التطلع الى المستقبل .

ان ربط الخيبات او النكسات او المصائب بأفراد معينين يقصد منه أحيانا أخفاء مسئولية الآخرين ، على مختلف المستويات، الذين كانوا يشاركون في تلك القرارات السياسية والاجتماعية أو يدفعون اليها أو يوحون بها او يؤيدونها . ان المشاركة في الخطأ ، بداية او تقبلا ، ومحاولة التملص من الاعتراف به يشكل وجها من وجوه الوهن المعنوي الذاتي وعدم الرغبة في ممارسة النقد الذاتي وبالتالي انعدام الرغبة في تصحيح الخطأ وسد الثغرة التي ينفذ

منها مع الرضا بالواقع الآسن الراكد . كما ينطوي ، علاوة على ذلك ، على عملية تمويه أو تضليل عن طريق الايحاء بأن الحال قد تبدلت أو ستتبدل باستبدال فلان بفلان، أي بزوال «السبب» او « الاسباب » الداعية لها والتي تتلبس ، عادة ، شخصا بعينه أو عدة أشخاص ومن ثم تعطى البراءة للجميع . وهذا الشعور «المريح» او الضمير «المطمئن» يعفي من محاسبة النفس جميع الذين اسهموا مع « الضحية » في الحياة السياسية من منظمات وهيئات وحتى من جماهير ، وبذلك تفتقد العلاقة الجدلية ، التي المعنا اليها ، بين الدور الذي يلعبه الرجال البارزون وبين الواقع وشرائطه ودرجة الوعي لدى المنظمات والهيئات السياسية والجماهير المؤيدة لها .

وبالمقابل فثمة سمة عامة تكاد تكون مشتركة بين معظم هؤلاء الرجال البارزين ، ولعلها تعود الى الايديولوجية الغامرة التي لفت حياتنا حقبا طويلة وعاشت في الضمير أو اللاوعي ، والتي تحمل ، عند قصور الوعي او الفعل ، هدهدة بالامل او الحلم غير المفضي الى العمل وتأتي تعبيراً عن القصور الذاتي والكوابح والمثبطات الخارجية .

وهذه السمة تكتنف المفهوم الذي وقر في النفوس عن رجل الدولة . بما في ذلك نفوس اولئك الرجال البارزين ، ان رجل الدولة البارز هو من يتناول الواقع بالتبديل ويمارس فاعليته فيه وهدفه الاول بناء الممكن ، ويشعر بأنه مسئول عن الحسن والسيء ، اما من يعتبر نفسه صاحب رسالة علوية يروم ، من خلالها ، اقتسار الواقع ومحاولة «خلقه» توهما، فهو يؤمن بالكلية الغيبية وبامكان بلوغ الانسان غاية االكمال المثالي دون جهد او بغائية حتمية لايمكن في الواقع ان تعيش اذا لم يساعدها على التحقق جهد الناس وسعيهم .

الاول يهتم بالافكار لنفعها والثاني « لحقيقتها » المثالية . وبين الكمال المثالي الذي يتجاوز الواقع تصعيدا وتعاليا وبين مواجهة الواقع واستخلاص الوقائع او الحقائق القابلة للتحقيق في حياة الناس بون شاسع ، ومن شأن الغلو في تعظيم الدور الذي القاه « القدر » على عواتقهم ومن شأن استشرائه ان ملك نفوس هؤلاء الرجال البارزين ما يشبه الهوس التنبؤي فطلعوا على الناس بحلة اسطورية كأنها افلتت من غيابه العصور او كأنها جواب التساؤل الحائر العاجز الكامن في اللاوعي . اما الحلة الواقعية الموضوعية فلم يكن متاحا لها ان تتحقق ويستقيم أمرها ما لم يكن هناك سياق تطوري أو ثوري يمكن تلمسه والاهتداء به . ولقد كان هذا السياق مغيبا أو مطموسا او جنينيا وفي أحسن الاحوال لم يؤخذ سوى شكل بدوات بدائية . وتبعا لذلك لم تنطبق على اولئك الرجال صفة رجل الفكر العظيم ، وهو الذي يهيء اذهان للناس للتغيرات الاجتماعية الثورية التي هي في طريقها اليهم أو رجل الفعل العظيم الذي ينظم النضال بين الطبقات او الفئات الاجتماعية الموعودة بالمستقبل لتنهض وتربح قضيتها بواسطة الثورة أو أية وسيلة ملائمة اخرى .

وقبالة هذه السمة المشتركة ثمة ظاهرة أخرى تستدعي الاهتمام وهي تتعلق بكيفية استخدام الذكاء أو الارادة ، من قبل هؤلاء الرجال ، في مواجهة الضرورات الداخلية والخارجية الذاتية منها والموضوعية . ان انتصار الذكاء والارادة ليس من شأنهما اطلاقا انتهاك حرمة الضرورات الطبيعية والاجتماعية وليس من شأنهما تجاوز ما تقتضيه مواجهتها . وانتصار الذكاء والارادة يوفر مجهودهما الخاص لقيام بعض الاوضاع التي يستند اليها التحول، تحول ما هو « ممكن ان يكون » الى ما هو « كائن » . وهذا ما نعنيه

عندما نقول بشكل رجعي المفعول بأن المستحيل قد تحقق .

ولعل من اشد فواجع تاريخنا المعاصر ايلاما هي الفواجع التي كان يرافقها ، بجانب « الاحلام السعيدة » ، الصراخ بكلمة « مستحيل » فكأن هناك جبلا لا مزحزح له ، وبسبب من قصر النظر او الوعي البائس كانت يحشد لها من الطاقات والموارد مايكفي للانتصار ولكن ذلك لم يكن يتم الا بعد فوات الاوان .

واذا كان هناك من أمر خلقي يصح في جميع الفترات التاريخية فان هذا الامر هو الوعي والفعل في اللحظة الحاسمة او الملائمة حتى لا تصبح من الفرص المضاعة وما أكثرها في حياتنا . ان فرص الاختيار محدودة واضحة وكل قرار باختيار ينطوي على تشييد جديد لبناء الذات (الكيان الانساني) والمجتمع والعالم . وان كل تجربة رشيدة انما هي تجربة ترشدنا فيها قوانين معروفة قبلا وتهدف هذه التجربة الى تحقيق السيطرة والسيادة على المشاكل الملحة . وهذا هو الفعل التاريخي الذي يمكن ان ينظر ، من خلاله ، الى دور الافراد البارزين .

احسان دركين

مصادر البحث الرئيسية

١ ــ التاريخ ووعي الطبقة — جورج لوكش

٢ ــ دور الفرد في التاريخ — ج. بليخانوف

٣ ــ البطل في التاريخ — سيدني هوك

٤ ــ مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد الخامس العدد الاول ١٩٧٤

لمحة عن حياة المؤلف

ولد « جيورجي فالنتينوفتش بليخانوف » عام ١٨٥٦ وتوفي عام ١٩١٨ . ويصح اعتباره واحدا من مؤسسي الماركسية الروس ووجها من ابرز الوجوه البعيدة الاثر في الاممية الثانية . وكان لايزال طالبا ناشئا عندما انضم الى الحركة الثورية لجماعة «النارودنيك» اي « الشعبيين » ولكنه بت في حبل صلته بأفكارهم واسس عام ١٨٨٣ ، وهو في المهجر ، مع « اكسلرود » و « فيرازاسوليتش »اول منظمة اشتراكية ديمقراطية في روسيا وهي « جماعة تحرير العمل»، ولم يكن بليخانوف شارحا ممتازا للماركسية فحسب بل كان تلميذا موهوبا لماركس ولانجلز . اتم وزاد في عمق نظريتهما ونافح عنها بطريقة بارعة اصيلة . وعندما شرعت ، حوالي عام ١٨٩٠ ، النزعة الموصوفة « بالتحريفية » بقيادة « بيرنشتين »في الانتشار واصبح لزاما ان يذاد عن اسس الماركسية ضد جميع المقرزمين الذين يدعون « تكميل » الماركسية ، كان بليخانوف واحدا من المع المتصدين لهذا الاتجاه واضعا نفسه في خدمة المادية الديالكتيكية . وفي غمرة النضال ضد الانتهازية الاممية وضد اشكالها الروسية كالنزعة «الاقتصادية» و « الستروفية » كان بليخانوف في الصف الاول ، وكان واحدا من القلائل البارزين في الحركة الاشتراكية الاممية الذين توفروا بانتظام على الاهتمام بالفلسفة الماركسية . ولم يكن عبثا ان يوصي لينين بدراسة كتبه الفلسفية بوصفها « كتبًا مبدئية لفهم الشيوعية » .

وحتى المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي وفي المؤتمر نفسه عمل بليخانوف يدا بيد مع لينين ، هذا القائد المنبثق عن الجيل

الماركسي الفتي وساهم كلاهما ، في بداية هذا القرن ، في تحرير الصحيفة الاشتراكية ـ الديمقراطية « الايسكرا » (الشرارة) و « زاريا » (الفجر) التي جعلت اولى مهامها مكافحة اتجاه « الاقتصاديين » وخلق حزب ثوري متماسك موحد. وبعد الانشقاق الذي دب في هذا المؤتمر – والذي شهد ميلاد المنشفيك ـ انضم بليخانوف ، بعد تردد كبير ، الى جماعة المنشفيك . واعتبارا من هذا التاريخ اختلفت طريق لينين عن طريق بليخانوف . وفي الاعوام الممتدة بين ١٩٠٨ و ١٩١٢ تقرب بليخانوف ، أحيانا ، من البلاشفة وقاد النضال مع لينين ضد النزعة «التجريبية» وجماعة «المصفين». وفي اثناء الحرب الاستعمارية الاولى اعلن بليخانوف ، خلافا لموقف لينين تأييده لفكرة « الدفاع الوطني » هذا الموقف الذي حافظ عليه حتى بعد ثورة شباط ١٩١٧ . وظل حتى تاريخ وفاته خصما للنظام السوفييتي ولكنه رفض اثر ثورة اكتوبر ان يتدخل بصورة مكشوفة ضد البلاشفة والنظام السوفييتي .

وقد ترك بليخانوف مؤلفات عديدة والكتاب الذي نقدمه للقاريء العربي هو واحد من هذه المؤلفات التي لاتزال تحافظ على تمام جدتها واصالتها .

- ١ -

قرابة عام ١٨٧٨ كتب الراحل كابليتز(١) مقالا عنوانه « الذكاء والعاطفة بوصفهما عاملين من عوامل التقدم » استهدف فيه ، **بالرجوع الى سبنسر ، اقامة الدليل على ان العاطفة تلعب، في تقدم** الانسانية ، دورا رئيسيا بينما لايعدوا دور الذكاء ان يكون ثانويا **وتابعا لها تماما . ورد عليه «باحث اجتماعي مرموق(٢) »** وتلقى بدهشة هازئة هذه النظرية التي تطوح بالذكاء الى « مقعد الفارس في السباق » . ومع ذلك فقد كان على حق في دفاعه عن الذكاء ولكان احسن صنعا لو انه ، عوضا عن الغوص في هذه المسألة التي أثارها كابليتز ، أبان أن طرحها بهذا الشكل ليس مقبولا ولا ممكنا .

والحقيقة ان نظرية « العوامل » لا سند لها ، في حد ذاتها ، لانها تفصل ، بطريقة كيفية ، مختلف اشكال الحياة الاجتماعية ، بعضها عن بعض ، وتقننها على شكل قوى خاصة تشد ، من جهات مختلفة وبدرجات متفاوتة من النجاح ، الانسان الاجتماعي الى طريق التقدم . وهذه النظرية ، بالشكل الذي اوردها به كابليتز تفتقر اكثر الى الاساس لانها تحول الى اقانيم اجتماعية خاصة ، لاهذا المظهر او ذاك من مظاهر فاعلية الانسان الاجتماعي وانما مختلف نواحي **الوعي الاجتماعي** . وتلكم هي ، في الحقيقة ، الغاية في

---

(١) كابليتز : (١٨٤٨ - ١٩٩٣) كاتب شعبي روسي .

(٢) تنصرف الاشارة هنا الى ن.ميخائيلوفسكي (١٨٤٢ - ١٩٠٤) الباحث النظري لجماعة الشعبيين الاحرار في روسيا . وقد رد على كابليتز لدى صدور مقالته في مجلة « الملاحظات الادبية » عام ١٨٧٨ .

التجريد ، ويكفي ان نتجاوزها حتى نلج عندئذ عالم المجرد الصارح الهـــازل .

وكان حفا على هذا « الباحث الاجتماعي المرموق » ان يسترعي انتباه كابليتز وقراءه الى ذلك . ولو انه ابان في اي تيه من التجريد ضل كابليتز في سعيه لايجاد « عامل »يسير التاريخ لكـــان اسهـــم في نقد نظرية « العوامل » نفسها ، وهو امر يبدوا لنا حاليا على جانب كبير من الفائدة . ولكنه لم يكن ليرقى الى هذه المهمة لانه ، نفســـه ، يقر هذه النظرية ولا يمتاز عن كابليتز الا بانعطافه نحو الانتقائية التي تبدو ، بموجبها ، جميع العوامل على مستوى واحد من الاهميـــة . ولا تلبث انتقائيته هذه ان تتجلى بوضوح تام في هجومه على المادية الديالكتيكية ، هذه النظرية التي تضحي ، على حد قولـــه ، بجميـــع العوامل في سبيل العامل الاقتصادي محيلة دور الفرد في التاريخ الى العدم . ولم يدر بخلد هذا «الباحث الاجتماعي المرموق» ان الماديـــة الديالكتيكية غريبة عن نظرية العوامل هذه وان من قصـــور التفكـــير المنطقي ان يذهب الاعتقاد بالمرء الى حد اعتبارها بمثابة اليقينيـــة . ولنلاحظ ان خطله هذا ليس نسيج وحده بل قام به الكثـــيرون ومـــا زالوا يقومون به وسيقومون به حتما حتى زمن طويل ..

لقد اتهم الماديون ب « اليقينية » في زمن لم يكن قد قام لديهم بعد مفهوم ديالكتيكي عن الطبيعة والتاريخ . ولنكتف ، دونما حاجة الى استرجاع الزمن السحيق ، بالاشارة الى النقاش الذي شارك فيه برايس(١) العالم الانجليزي المعروف بريستلي(٢). لقدظن برايس، في

---

(١) برايس (ريشارد) : اقتصادي وناشر انجليزي (١٧٢٣ – ١٧٩١) .
(٢) بريستلي (جوزيف) : فيزيائي وكيميائي انجليزي وفيلسوف مادي (١٧٢٣ – ١٨٠٤) .

معرض تحليله نظرية بريستلي ، انه وفق الى البرهان على ان المادية لا تأتلف مع فكرة الحرية وانها تنفي كل فاعلية فردية مستقلة .

وقد اجاب بريستلي ، مستشهداً بالتجربة العملية بقوله :
« حتى لااتكلم عن نفسي فبودي الاشارة الى انني لست اكثر الحيوانات تراخيا وكسلا ، ولكن اين توجد قوة في التفكير وقدرة لاتغالب وصلابة لاتلين ولا تكل في متابعة الاهداف الهامة ان لم تكن عند المؤمنين بالضرورة » .

ويعني بريستلي بكلامه هذا الفئة الدينية الديمقراطية المدعوة « بالمسيحيين الجبريين »(١) . ولا ندري ما اذا كانت هذه الشيعة نشطة حقا كما يعتقد بريستلي احد اتباعها ، ولكن ذلك على جانب قليل من الاهمية . من المؤكد ان مفهوما ماديا عن الارادة ينسجم تماما مع اكثر الفاعليات العملية نشاطا . وقد لاحظ لانسون ان :

« جميع التعاليم التي اقتضت المزيد من الارادة البشرية افترضت ، مبدئيا ، عدم أهلية هذه الارادة فاستبعدت بذلك الاختيار الحر والقت بالعالم في احضان الجبرية . »(٢)

ويخطىء لانسون اذ يعتقد بأن كل استبعاد لما تواضع الناس على تسميته بحرية الاختيار يؤول بالضرورة الى الجبرية . ولكن هذا

---

(١) ان هذا المزاج من المادية واليقينية الدينية يمكن أن يدهش فرنسيا في القرن الثامن عشر اما في انجلترا فليس ثمة مايدعو للدهشة ، لقد كان بريستلي نفسه رجلا متدينا (الحقيقة على هذا السفح من البرينة والخطأ على السفح الاخر) .

(٢) جـ لانسون : تاريخ الادب الفرنسي باريس ١٨٩٦ صحيفة ٤٤٦ .

الخطأ لم يمنعه من التنويه بظاهرة تاريخية لها اهميتها القصوى : اذ يظهر لنا التاريخ ان الجبرية نفسها ابعد من ان تصبح ، في بعض الحالات ، عائقا في طريق الفاعلية العملية ولعلها تحولت ، في بعض الاحيان ، الى نقيض ذلك،اذا **اصبحت الاساس النفسي الضروري** للعمل . ويكفي ان نستشهد بجماعة المتقشفين الذين تجاوزوا ، من حيث الشدة والقدرة ، جميع أحزاب انجلترا في القرن السابع عشر، كما ان المسلمين الاوائل اخضعوا لسلطانهم ،في فترة قصيرة من الزمن، **مساحات شاسعة تمتد من الهند الى اسبانيا . وشد مايخطىء اولئك** الذين يعتقدون بأنه يكفي الاقتناع بأن حادثا لامناص من وقوعه حتى **تضمحل لدينا كل مكنة نفسية للمساهمة فيه او مقاومته**(١) .

هل يكون عملي حلقة ضرورية في سلسلة الحوادث الضرورية التي لابد من وقوعها ؟ ان المسألة كلها تكمن في هذا السؤال ، فاذا أجبت بنعم فان ترددي سيكون اقل وعملي اكثر اصرارا . وليس في هذا الامر شيء من الغرابة فعندما نقول ان فردا ما يعتبر عمله حلقة ضرورية في سلسلة الاحداث الضرورية ، التي لابد من وقوعها ، فاننا نقصد ، بخاصة ، ان عدم توافر الارادة الحرة ، بالنسبة اليه ، مماثل **لاستحالة العطالة المطلقة** ، لان عدم توافر الارادة هذا ينعكس في ذهنه

---

(١) ــ من المعلوم ان تعاليم كالفن تقضي باعتبار اعمال الناس محددة سلفا بالارادة الالهية ووفقا لهذه التعاليم فان الله يصطفي بعض خدامه لينقذ الشعوب المضطهدة بدون حق . وكل شيء يحمل على الاعتقاد بان كرومويل كان يعتبر نفسه صنيعة من صنائع الله ، فكان لاينفك يردد ، بصدق طبعا ، أن أعماله كانت ثمرة الارادة الالهية ، وكل ماقام به كان مصبوغا ، مسبقا ، بلون الضرورة . ولم يكن هذا الاعتقاد ليقعد به عن التطلع الى انتصارات جديدة وانماكان دعما لمجهوده الذي لايقهر .

على شبكل من استحالة التصرف خلاف ماينبغي له القيام به . وتلكم هي حالة فكرية تصدق فيها كلمات لوثر : « انني هنا ولا يسعني ان امضي امرا خلاف ذلك » . وبفضل هذه الحالة الفكرية يعطي الرجال الدليل على القدرة التي لاتغالب ويقومون بالاكتشافات المدهشة . كان هملت يفتقد هذا النصاب لهذا لم يكن بمستطاعه الا ان يكتئب ويغوص في لجج تأملاته ولم يكن بوسعه القبول بفلسفة تكون فيها الحرية ضرورة في شكلها الواعي . وقد صدق فيخته حين قال : **« لهذا الانسان هذه الفلسفة . »**

- ٢ -

حمل بعضهم عندنا ، على محمل الجد ، فكاهة ابداها ستاملر(١) في معرض اشارته الى التناقضات المستعصية على الحل ، حسب ادعائه ، والتي تشتمل عليها بعض التعاليم السياسية والاجتماعية في الغرب وبودنا الكلام على تعليله لظاهرة كسوف القمر .

وهذا التعليل يعتبر بحق ايغالا في اللامعقول . فمن بين الشروط الواجب توافرها ليتم هذا الكسوف لامكان لارادة الانسان ولا يمكن لها ذلك بحال من الاحوال . ولهذا السبب وحده فان فكرة وجود حزب يساهم في كسوفات القمر لايمكن ان تعيش الا في مأوى للمجانين . وحتى اذا كان عمل الانسان يشكل احد الشروط المطلوبة فما من احد ، وان تاق لرؤية الكسوفات ، يساهم في هذا الحزب اذا اقتنع ان هذه الكسوفات ستتم بالضرورة **دونما حاجة لمساعدته**. وفي هذه الحال تقتصر «يقينيته» على استنكافه عن القيام **بعمل نافل وبالتالي عديم الجدوى** . وتصرفه هذا لاعلاقة له البتة باليقينية بمعناها الحقيقي . واذا اردنا ان ينتفي التعارض مع العقل ، في مثال الكسوف الآنف الذكر ، فعلى الحزب المشار اليه أن يعدل من حركة الكسوف بصورة أساسية . ولنتخيل ان القمر يمتلك وعيا والوضع الذي يأخذه في الفضاء ، عند الكسوف ، يبدو له نتيجة لارادته الحرة ، وان هذا الوضع ، علاوة على مايتيحه له من ترضية عميقة ، لاغنى عنه ليتم

---

(١) ستاملر (رودلف) (مولود عام ١٨٥٦) : فيلسوف من المدرسة الكانتية الجديدة ، ينكر وجود قوانين تحدد التطور التاريخي .

له هدوؤه الفكري ، ولذا فهو يستهدف « باشتياق » اشغال هـذا **المكــان**(١) . وبعد ان نتخيل كل ذلك فعلينا ان نطرح على انفسنا السؤال التالي : وأخيرا اذا اكتشف القمر الحقيقة وهي ان ارادتـه و « مثله الاعلى » لايحددان حركته في الفضاء الكوني بـل تحـدد، حركته ، على العكس ، ارادته و « مثلـه الاعلى » فمـاذا يستشعر عندئذ ؟ استنادا لاقوال « ستاملر » تجعله هذه الحقيقة عاجزاً ، حتما ، عن الحركة او يتخلص من هذه الورطة عن طريق ضرب مـن التناقض المنطقي ، بيد ان مثل هـذه الفرضيـة محرومـة مـن اي اساس. ويستحيل هذا الكشف ، بالنسبة للقمر ، الى موضوع **صوري** يكون مبعثا للسآمة وسببا في بلبلة معنوية تضع في مشاقـة « مثلـه الاعلى » والحقيقة الحركية . واذا ما افترضنا ، آخر الامر ، أن « حالته النفسانية » ستكون مشروطة ، بتمامها ، بهذه الحركة فعلينا عندئذ ان نستقصي ، في هذه الحركة، اسباب البلبلة التي تحيق به.

ويكشف لنا التمحيص الدقيق ان مايشكو منه القمـر هـو ان ارادته ليست حرة عندما يكون في الاوج والامر خلاف ذلك عندما يكون في الحضيض فقد استحال الظرف نفسه الى سبب صوري من الهناءة والارتياح المعنوي . وما لم تجر الامور على العكس فقد يتراءى لنـا ان ارتياحه متوافر عندما يكون في الاوج لا في الحضيض لانه يعثر ، كل حال فمن المؤكد أن مثل هذا التوافق ممكن الوقـوع تمامـا وان

---

(١) وذلك كما لو ان البوصلة تجد لذة في التوجه بأحد طرفيها الى الشمال ، لانها تعتقد بانها تدور مستقلة عن أي سبب اخر ، دون أن تلاحظ الحركات غير الملموسة للجاذبية المغناطيسية . (ليبنيتز ـ تيودوسي ـ لوزان ١٧٤٠ ـ ص ٥٩٨)

الشعور بالضرورة يتسق تماما مع الفاعلية العملية في منتهى حدتها .

ومهما يكن من امر فهذا مايلاحظ ، حتى الآن في التاريخ . فمنكرو حرية الاختيار غالبا ما يبزون معاصريهم بقوة الارادة ويكلفونها اقصى ماتطيق حتى تبلغ غاية وسعها . والامثلة عديدة ومألوفة تماما . ولا يسعنا ان نغض الطرف عنها كما فعل «ستاملر» الا اذا رفضنا عامدين مواجهة الحقيقة التاريخية كما هي عليه في الواقع. وهذا الاستبعاد المتعمد شائع الوقوع عند الذاتيين لدينا[1] ولدى بعض صغار البرجوازيين الالمان مثلا غير ان هؤلاء البرجوازيين الصغار والذاتيين ليسوا رجالا وانما هم ظلال كما يصفهم بيلينسكي[2] .

ولندقق ، عن كثب ، في الحالة التي تكون فيها اعمال الانسان الماضية والحاضرة والمقبلة غير بادية الا من خلال الضرورة . لقد علمنا ، آنفا ، أن الرجل ، في مثل هذه الحال ، عندما يخال نفسه مبعوث العناية الالهية ...او موضع اختيار القدر النافذ كنابليون أو الناطق باسم حركة تاريخية لا تقاوم كبعض الساسة في القرن التاسع عشر ، يعطي الدليل على ارادة تبدو وكأنها قوة من قوى الطبيعة نفسها ، قادرة ان تنثر ، كقصور من الورق ، جميع العوائق التي تقام في طريقها من امثال هاملت ومن هم دونه في مراكز

---

(1) يقصد هنا الشعبيين الروس : ب. لفروف و ب. ميكايلوفسكي و ن. كارييف واخرين .

(2) ف. بيلنسكي (١٨١١ ــ ١٨٤٨) ناقد وناشر روسي مرموق .

القصبات(١) . ولكن ما يهمنا في هـــذه المناسبة هو جانب آخر : عندما اشعر ان ارادتي ليست حرة واجد نفسي ، في عجـز تــام ، ذاتي وموضوعي ، عن العمل خلاف مافعلت تبدو لي عندئذ اعمالي كأحب عمل ممكن لدي اذ تتماثل عندئذ في ضميري الضرورة والحرية وكذلك الحرية والضرورة . وانقضاء حريتي يكمن في مامعناه: **أنني لااستطيع ان افصم عرى هذا التماثل بين الحرية والضرورة بجعلي احداهما تعارض الاخرى ولا يمكن ابدا ان اشعر اكراه الضرورة لأن غياب الحرية هذا ليس ، في الوقت نفسه الا تعبيرا تاما عنها وملازما لهــا .**

قال « سيمل »(٢) ان الحرية لا يمكن فهمها الا بمعارضتها بعائق ما . وعلى ذلك لا يمكن ادراك كنهها الا بمعارضتها بفكرة القسر . وهذا التفكير صائب بالبداهة ولكننا لانستطيع ، انطلاقا من هــذه الحقيقة الاولية ، ان نطرح جانبا الفكرة القائلــة بــأن الحريــة هي الضرورة التي وعيناها والتي تشكل أحد الاكتشافات الفــذة التي

(١) وهاكم مثالا آخر يبرز بوضوح حدة العواطف التي يتسم بها هذا النفر من الناس . فقد كتبت ريني دي فرانس دوقة فيرات (ابنة لويس الثاني عشر) الى معلمها كالفن مايلي : « كلا لم انس ابدا ماكتبته لي من أن داود قد كره اعداء الله كرها مميتا . ولاابتغي مخالفة ذلك أومناقضته . ولئن علمت أن الملك والدي والملكة والدتي والمرحوم الاستاذ زوجي وجميع أولادي سيعاقبون من قبل الله فسأبغضهم امقتهم مقتا مميتا واتمنى لهم الجحيم مثوى ... الخ » فأيه قوة ضارية لاتقــاوم لايكون كفاء لها هؤلاء الناس المفعمون بمثل هذه العواطف ؟ ومع ذلك فهم ينكرون حرية الاختيار !

(٢) سيمل ــ جورج (١٨٥٥ ــ ١٩١٨) فيلسوف وباحث اجتماعي الماني مثالي النزعة ومن اتباع كانت .

توصل اليها الفكر الفلسفي . ان تعريف « سيمل » ضيق محدود فهو لايأخذ الحرية الا مواجهة بعائق خارجي . وما دام لايستهدف غير هذه العوائق فان قضية تماثل الحرية والضرورة تصبح واهية. ان اللص ليس حرا في سرقة منديلك الجديد اذا منعته من ذلك وما دام لم يتغلب على مقاومتك بطريقة ما . ولكن بجانب هذا المفهوم عن الحرية ، البسيط والسطحي ، يوجد مفهوم آخر اعمق غورا بما لا يقاس ، ولا يمكن ان يقدم لمن يمتنع عليه التفكير الفلسفي . وحتى الذين يناقشون بطريقة فلسفية لن يقيض لهم ادراك كنهه الا اذا نجحوا في تجاوز الثنائية وادركوا ، من جهة اخرى ، ان لاوجود بين الذات والموضوع لتلك الهوة السحيقة التي يتوهمها الثنائيون .

يضع الذاتيون الروس مثلهم الاعلى الطوباوي امام حقائقنا عن الرأسمالية ولا يعدونه الى غيره . وهكذا غاص الذاتيون في مستنقع الذاتية . والمثل الاعلى الذي يأتم به من يسمون انفسهم « الاتباع »(١) الروس يبدو ابعد كثيرا من الواقع الرأسمالي من المثل الاعلى الذي يأتم به الذاتيون . ومهما يكن من امر فقد عرف « الاتباع » كيف يعثرون على الجسر الذي يربط المثل الاعلى بالحقيقة الواقعة ، وقد وصلوا الى مايسمى النظرة الوحدانية . وتبعاً لآرائهم هذه ، فستنتهي الرأسمالية ، تبعا للتطور الذي تمضي فيه ، الى نفي نفسها ، وبذلك يتم تحقيق مثلهم الاعلى ، مثل « الاتباع » الروس وغيرهم .. وتلكم هي الضرورة التاريخية، « والتابع » نفسه **اداة من ادواتها وليس بوسعه ان يكون غير ذلك** سواء بسبب وضعه الاجتماعي او بسبب صفاته الاخلاقية والعقلية

---

(١) الاتباع الروس : وهكذا كان يسمى الاشتراكيون الديمقراطيون الروس ، اتباع ماركس ، بغية تضليل جهاز الرقابة .

المنبثقة عن هذا الوضع .

وثمة ايضا مظهر من مظاهر الضرورة . وبما ان وضعه الاجتماعي يحبوه هذه الصفة لا غيرها فسبيله الا يكون اداة هذه الضرورة ورهينها فحسب **بل يود بشوق ان يكون ذلك ولا يسعه ابتغاء وجه آخر ،** وهذا **مظهر من مظاهر الحرية** المتولدة عن الضرورة وبعبارة ادق الحرية المتماثلة مع الضرورة او الضرورة التي استحالت حرية(١) .

وهذه الحرية هي ايضا الحرية المواجهة للقسر والمعارضة ايضا لشكل من القيود . ان التعاريف العميقة لا تنفي التعاريف السطحية بل تكملها وتحتويها . وبهذه المناسبة ما هو العامل القسري او القيد الذي يمكن ان يكون موضع بحثنا ؟ هذا الامر واضح جلي والكلام هنا قاصر على المانع المعنوي الذي يشل الارادة لدى نفر لم يتخط الثنائية بعد وعلى القيد الذي يشكو منه الذين لم ينصبوا بعد الجسر فوق الهوة التي تفصل المثل الاعلى عن الحقيقة الواقعة . وما دام الفرد لم يظفر بهذه الحرية نتيجة مجهود شخصي شاق من التفكير الفلسفي فلن يتوصل الى هذه الحقيقة ويغدو الألم الذي يحيق به عبارة عن الجزية المخجلة التي يؤديها للضرورة الخارجية التي تعترضه . وبالمقابل فهو يحيا حياة جديدة رحبة لامراء فيها طالما يزيح عن كاهله هذا الاكراه او هذا النير المؤذي الذي ينال من قدرته وعندها تغدو **فاعليته الحرة التعبير الواعي الحر عن الضرورة.**
وتصبح هذه الفاعلية قوة اجتماعية لاشيء يمنعها من ان تتفجر :

على المروق المخادع
كالصواعق السماوية

---

(١) تستحيل الضرورة الى حرية . لا لانها تتوارى بل للسبب الوحيد هو أن تماثلهما « الداخلي » الكامن قد تجلى أخيرا . (هيجل) .

- ٣ -

نعيد القول بأن وعي الضرورة الملازمة لحادث ماليس من شأنه الا ان يزيد في طاقة الشخص الذي يواجه هذا الحادث فيتجاوب معه ويعتبره نفسه احدى القوى التي تحدد وجوده . فاذا تربص الشخص ، بعد وعيه الضرورة التي تحدد ذلك الحادث وشبك ذراعيه ووقف يتأمله فانه يبرهن عن جهل فاضح بالرياضيات .

وحقيقة القول هي ان نفرض ان الظاهرة (آ) يتحتم وقوعها اذا توافرت مجموعة شروط معينة نرمز اليها بحرف (س) ، وقد اوضحت لي ان بعضا من هذه الشروط قد تم توافرها وان البقية ستحصل في الوقت (ن) . وبما انك اقنعتني بذلك فسأواجه الحادث متسائلا : (كل شيء على مايرام !) وأنام ملء جفوني حتى يحين اليوم السعيد فيتحقق الحادث وفق تنبؤاتك ..

فعلام تكون النتيجة ؟ من بين مجموع القيمة (س) وهي الشروط الواجب توافرها حتى تحدث الظاهرة (آ) ادخلت **فاعليتي أيضا** وسأرمز اليها بحرف (د) . ولما كنت مستسلما للرقاد لدى حلول الوقت (ن) فان مجموع الشروط اللازمة لوقوع الظاهرة الملمع اليها لم يعد (س) وانما (س ــ د) ، وهذا مايبدل الوضع . ويجوز ان يحل آخر مكاني وقد يكون مستسلما للعطالة ولكن المثل الذي ضربه له استرخائي واستخلص منه ان العطالة أمر مشين ، قد حرك فاعليته . وفي هذه الحال تحل القوة (ب)

مكان القوة (د) ، فاذا كانت القــوة (ب) مساويـــة للقــوة د (د = ب) فان مجموع الاسباب الضرورية لانجاز الظاهرة (أ) تبقى مساوية لـ (س) وتقع الظاهرة من تلقاء نفسها في الوقت المحدد (ن) . ولكن اذا لم تكن القيمة التي تمثلها قوتــي معادلــة للصفر واذا كنت كفؤا وماهرا وما من شخص آخر يقوم مقامي فتكون عندئذ قيمة (س) ناقصة لم تكتمل وستتحقق الظاهرة (آ) في زمن متأخر عن الوقت الذي افترضناه آنفا أو تتم بصورة ناقصــة أو لا تتم البتة . وهذا الامر بين الوضوح فاذا فاتتني هذه الحقيقــة أو تخيلت ان القيمة (س) ستبقى (س) حتى بعد اخفاقي فمــا ذلك الا لأنني أجهل قواعد الحساب .

وهل اكون انا الوحيد الذي يجهل قواعد الحساب ؟ فعندمــا أنبأتني بأن مجموع الشروط (س) سيتم الحصول عليه في الوقــت (ن) لم تشر الى انني سأذهب وأنام حالما تنتهي محادثتنا . لقــد كنت على يقين بأنني سأعمل ، حتى النهاية ، لاتمام الظاهرة (آ) . وقد اعتمدت على قوة كان لزاما عليك الا تعول عليها كثيرا بدلا من قوة اخرى كان من واجبك الاعتماد عليهــا ، وبالتالي فقــد اخطأت انت ايضا في الحساب .

ولنفرض انك لم ترتكب اية هفوة وكنت مرتقبا حدوث كــل شيء فاليك ماكانت ستؤول اليه حساباتك : لقد ذكرت ان مجموع الاسباب (س) سيتحقق في الوقت (ن) ومن جملة هذه الشروط الضرورية فان قعودي يمثل **قوة سلبيــة** كما يمثل الأثر المثير وهو الذي يشيع الطمأنينة في قلوب الرجال الأشداء الموقنين ان اتجاهاتهم ومثلهم العليا ليست الا تعبيرا ذاتيا عن الضرورة الموضوعية ، يمثل **القوة الايجابية** . وفي هذه الحالة يتحقق مجموع الاسبــاب (س)

في الوقت المحدد من قبلك وتتم الظاهرة (آ) .

وهذا يبدو واضحا . ولكن اذا كان واضحا فلماذا اضطربت للفكرة القائلة بضرورة وقوع الظاهرة (آ) ؟ ولم تبدت لي وكأنها تحكم علي بالعطالة ؟ ولم جعلني التفكير فيها أنسى المبادىء الاولية في الحساب ؟ لاريب في ان ظروف ثقافتي كانت تجعلني أحمل في نفسي ميلا الى العطالة وان محادثتنا كانت القطرة التي صبت في كأس دهاق ، وتلكم هي المسألة بكاملها . **ان الشعور بالضرورة لم يكن من شأنه الا تهيئة المناسبة اللازمة ليتحقق استرخائي وقصوري المعنوي** . ولم تكن الضرورة سبب ذلك وانما يكمن السبب في التربية التي اصبتها .

وهكذا نرى ان الرياضيات علم مفيد جليل القدر يحسن الا تغرب قواعده عن البال وبخاصة عن بال السادة الفلاسفة .

ولكن كيف يؤثر الشعور بضرورة وقوع حادث ما على رجل قوي الشكيمة ، **ينظر اليه شذرا ويناصبه العداء** ؟ ان الامور هنا تتحول قليلا عن مجراها . يمكن كثيرا ان يضائل هذا الشعور القدرة على المقاومة . ولكن متى يقتنع معارضو الحادث بأنه ضرورة لامحيص عنها ؟ ان ذلك يتم عندما تصبح الملابسات المظاهرة له وفيرة نافذة الأثر . ان الشعور بحتمية وقوع الحادث وانعدام مقاومة معارضيه ليست سوى تعبير عن قوة الاسباب المظاهرة له والتي تطوي في عدادها شعور العجز الذي يحسه المعارضون .

غير ان القدرة على المقاومة لا تتضاءل عند جميع خصوم الحادث فهي تزيد لدى بعضهم بتأثير من شعورهم بحتمية وقوعه وتكون

مقاومتهم عندئذ عبارة عن قدرة **اليأس** . ويعطي التاريخ بصورة عامة وتاريخ روسيا ، بصورة خاصة ، مجموعة من الامثلة التثقيفية . ولنا الامل في ان يستذكرها القاريء بنفسه .

وهنا يقاطعنا « كاريف » ، رغم انه لايشاطرنا الراي في وجهة نظرنا عن الحرية والضرورة ولا يقرنا في ميلنا الى « اندفاع » الرجال المتحمسين الاشداء ، ويستقبل بترحاب الفكرة التي عرضناها في **هذه المجلة**(١) ، وهي ان بامكان الفرد أن يكون قوة اجتماعية عظيمة ثم ، يتساءل مزهوا هذا الاستاذ الفاضل : **« طالما رددت ذلك »** .

وهذا القول حق لامراء فيه ان « م. كاريف » وجميع الذاتيين طالما نسبوا الى الفرد دورا هاما في التاريخ . لقد غبر العهد الذي كان فيه مثل هذا القول يقرب اليهم الشبيبة التقدمية ويحببهم اليها، تلك الشبيبة التي كانت تتعشق بنبل القيام بعمل يخدم المصلحة العامة ، معولة في بلوغ ذلك على المبادهة الفردية . ولكن لم يقيض للذاتيين اصلا ان يطرحوا بطريقة سليمة مسألة دور الفرد في التاريخ لاذهم يضعون قبالة قوانين الصيرورة التاريخية للمجتمعات عمل « الافراد ذوي الفكر النقاد » موجدين بذلك شكلا جديدا لنظرية العوامل . فالأفراد ذوو الفكر النقاد يشكلون أحد العوامل التي أملت حركة التطور المذكورة كما ان القوانين التي تحكم هذه الحركة تشكل العامل الآخر . ويترتب على ذلك ايغال في اللامعقول يمكن السكوت عليه الى حين مادام اهتمام « الافراد » الفاعلين منصرفا الى المسائل اليومية العملية ولا يمكنهم ، بالتالي،

---

(١) « المجلة العلمية » حيث ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٨ يحمل اسما مستعارا لمؤلفه هو : أ.كيرسانوف .

الاهتمام بالفلسفة . ولكن الهدوء الذي ساد بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩٠ أتاح للاشخاص القادرين على التفكير فرصة التأمل الفلسفي رغما عنهم . ومنذ ذلك الحين راحت التعاليم الذاتية تتقصف من جوانبها كافة واستحالت هباء شأن الرداء الشهير الذي تحدث عنه **غوغول** .

ولم يفد الترقيع شيئا وانفض الناس من حول النظرية الذاتية ، الواحد تلو الآخر ، شأن من يبتعد عن تعاليم لاتستطيع مطلقا الوقوف على قدميها .

وكما يحدث في مثل هذه الحالات ، فقد آل رد الفعل ببعض خصومها الى الغلو في المنهج المعاكس . واذا كان بعض الذاتيين ، في ابتغائهم ان ينسبوا الى الفرد دورا متعاظما في المسيرة التاريخية يرفضون ان ينزلوا النشوء والارتقاء التاريخيين للانسانية على حكم القوانين ، فان بعض خصومهم الجدد يجهدون ليثبتوا أن الحركة التاريخية تخضع في مسيرتها لقوانين معينة ، فكأنهم نسوا ان **الرجال هم الذين يصنعون التاريخ وتبعا لذلك يقوم الفرد ، حتما ، بدوره التاريخي** . لقد اعتبروا الفرد **هملا لاقيمة له** . ونرى ، من الوجهة النظرية ، ان هذا الغلو لايمكن ان يغتفر شأنه شأن ما انتهى اليه الذاتيون المخلصون لذاتيتهم . وليست تضحية الموضوعة في سبيل الركس (النقيض) بأوفر أسا من تناسي الركس في سبيل الموضوعة . ولن نصل الى وجهة النظر الصحيحة الا عندما نتمكن من ان نجمع في التوليف اقسام الحقيقة التي يحتويها الموضوعة والركس .

مضى زمن طويل وهذه المسألة تملك علينا اهتمامنا ومنذ زمن بعيد ونحن راغبون في دعوة القاريء الى تدارس هذه المسألة معنا. وقد اقعدتنا عن قصدنا بعض المخاوف لاعتقادنا بأن قراءنا ربما يكونون قد توصلوا الى حلها بأنفسهم ، فيكون اقتراحنا قد قدم بعد فوات الأوان .

اما اليوم فقد استبعدت هذه المخاوف لان المؤرخين الالمان كفونا مئونتها ، ونقول ذلك على سبيل الجد .

ونعني بذلك الخلاف المستحر نسبيا حول دور الرجال العظام في التاريخ والذي استأثر باهتمام المؤرخين الألمان . وكان بعضهم أميل الى اعتبار النشاط السياسي الذي مارسه هؤلاء الرجال السبب الرئيسي والأوحد في مسيرة الحركة التاريخية بينما يجزم الآخرون بأن ذلك المفهوم محدود المدى وان على علم التاريخ ان يراعي لا فاعلية الرجال العظام فحسب وانما مجموع الحياة التاريخية . وكارل لامبراخت(١) ، مؤلف كتاب **تاريخ الشعب الالماني** الذي نقله عن الروسية م . نيكولايف احد ممثلي هذا الاتجاه ، وقد اتهمه خصومه « بالجماعية » وبالمادية ووضعوه ، وياللهول ، على صعيد واحد مع« الملحدين الاجتماعيين

(١) لامبراخت كارل (١٨٥٦ ـ ١٩١٥) مؤرخ الماني برجوازي ومؤلف تاريخ ضخم عن المانيا .

الديمقراطيين » وذلك طبقا للعبارة التي استخدمها ، هو نفسه ، في ختام مناقشته .

وتقنع مراجعة مؤلفاته بأن اتهام هذا العالم المسكين لم يكن له سند أو أساس في الواقع . وكان علينا ان نلاحظ ، في الوقت نفسه ، ان المؤرخين الالمان ليسوا بالقدر الذي يؤهلهم لان يحلوا مسألة دور الفرد في التاريخ . ونظن ان من حقنا الافتراض بأن بعض القراء الروس لم يتوصلوا بعد الى حل هذه المسألة . لهذا فلا يزال هناك بعض الفائدة ، من الناحيتين النظرية والعملية ، في التصدي لهذا الأمر .

لقد تناول « لامبرخت » مجموعة من الآراء التي صدرت عن بعض رجال الدولة البارزين والتي تظهر مدى مابلغه عملهم بالقياس الى الوسط التاريخي الذي تم فيه هذا العمل . ولكنه اقتصر ، في رده ، على ايراد بعض الخطب وذلك في معرض الحديث عن بسمارك فهو يردد الكلمات التي قالها المستشار الحديدي في ريخستاخ المانيا الشمالية في ١٦ نيسان ١٨٦٩ :

« سادتي ، ليس بوسعنا ان نتغاضى عن تاريخ الماضي ولا ان نصنع المستقبل . اريدكم ان تتجنبوا الوقوع في الخطأ الذي يحمل بعضهم على تقديم عقارب الساعة ظنا منهم بأن ذلك هو السبيل الى التعجيل في انسياب الزمن . انهم غالبا مايبالغون في مدى تأثيري في الحوادث التي استندت عليها ، ومع ذلك فلن يطوف بمخيلة انسان ان يسألني صنع التاريخ . ان هذا الامر جد مستحيل بالنسبة اليّ حتى ولو اسهمتم معي فيه ، مع العلم ان بوسعنا معاً مقاومة العالم بأسره . ولكننا لانصنع التاريخ وعلينا ارتقابه حتى

يصنع نفسه . نحن لا نعمل في انضاج الثمار عندما نقربها من حرارة المصباح اذا اقتطفناها فجة قبل اوانها ، وكل مانقوم به ، في هــذه الحال ، هو الحيلولة دون نموها وبالتالي اتلافها .»

ثم يعــدد « لامبرخت » ، بالرجــوع الى « جولــي » ، آراء بسمارك التي طالما نادى بها والتي لاتخرج ، في معناها عما يلي :

« ليس بوسعنا صنع الحوادث الجسام بل علينــا التوافق مــع السياق الطبيعي للأشيــاء مستهدفين الاستثبات ممــا هــو تام النضج . »

ويرى« لامبرخت » في هذا القول حقيقة بعيــدة القــرار أو الحقيقة بعينها . ولا يمكن للمؤرخ ، تبعا لمفهومه هــذا ،ان يفكــر خلاف ذلك اذا رام تعمق الاحداث دون اقتصاره على فتــرة قصيرة من الزمن . أكان بوسع بسمارك ان يعود بألمانيا الى نظام الاقتصاد البدائي ؟ طبعا لا لان ذلك مستحيل عليه حتى وهو في ذروة نفوذه. ان الشروط التاريخية العامة أقوى من الافراد الاقويــاء ، وتغــدو سمة العصر ، بالنسبــة الى الرجــل العظيــم ، « ضرورة معطــاة تجريبيــاً » .

وهكذا يصف « لامبرخت » نظريته **بالشمولية** . ومن اليسير ان نتلمس ناحية الضعف في هذه « الشمولية » . ان آراء بسمارك التي اوردها بنفسه جد قيمة باعتبارها وثائق نفسية ،ويجــوز ألا نحس بأي ميل الى العمل الذي قام به المستشار الالماني ولكن ذلك **لا** يبيح لنا التقليل من أهميته والادعــاء بأن بسمارك يتميز بعقيدته « اليقينية » . لقد كان **لاسال** يفكر ببسمارك عندما قال :

« ان خدام الرجعية ليسوا محدثين بارعين فحسب ، ومن نعم الله كون التقدم يعتمد قليلا على أمثال هؤلاء الخدام ».

إن هذا الرجل ، وقد تمتع في بعض الاحيان ، بقدرة حديدية حقة ، يعلن نفسه عاجزا امام سياق الامور الطبيعي ويعتبر نفسه ، بلا مراء ، اداة بسيطة من ادوات الصيرورة التاريخية. ويدل هذا الامر ، مرة أخرى ، على أن بامكان المرء النظر الى الاحداث في ضوء الضرورة وأن يكون ، في الوقت نفسه ، على جانب عظيم من القدرة . ومن هذه الناحية فقط ، تغدو آراء «بسمارك» هامة ومفيدة . ولكن يستحيل ان نجد فيها جوابا على ماهية دور الفرد في التاريخ .

وتبعا لما يقوله « بسمارك » نجد ان الحوادث تصنع نفسها وليس بمستطاعنا الا التأكد مما أعدته لنا . ولكن كل عمل . عندما يتحقق ، يشكل هو ايضا حادثا تاريخيا . فبم تمتاز ، اذن ، هذه الاحداث التي تتم من تلقاء نفسها ؟ الحقيقة ان كل حادث تاريخي او قريب منه ، يؤمن ، على وجه التأكيد ؛ لبعض الناس اجتناء الثمار اليانعة من التطور السابق كما أنه ، في الوقت نفسه حلقة في سلسلة الحوادث التي تهيء ثمار المستقبل . فكيف يمكننا ان نضع هذه الاعمال قبالة السياق الطبيعي للاشياء ؟ لقد اراد «بسمارك» ، على مايبدو ان يقول بأن الافراد أو الجماعات التي تلعب دورا في التاريخ لم تكن لها ولن تكرن لها القوة الغالبة ، وهو أمر لاريب فيه . ولكننا نروم تقدير قوة الرجال هذه والتي هي،على وجه التأكيد ، غيرمفرطةفي قدرتها كما نروم الالمام بالملابسات التي تنمومن خلالها هذه القوة أو تتضاءل ولا يجيب « بسمارك » ولا العالم المحامي عن نظرية « الشمولية » في التاريخ الذي يستشهد بأقواله على هذا السؤال .

والحقيقة ان بوسعنا العثور ، لدى « لامبرخت » ، على

نصوص اكثر جدية . فهو يورد مثلا الكلمات التالية التي قالها « مونود » أحد المؤرخين العلميين البارزين والمعاصرين في فرنسا :

« لقد تعودنا ان نتعلق ، في التاريخ ، بالمظاهر البراقة المدوية والقصيرة الاجل ، التي تلازم الفاعلية الانسانية ، من حوادث عظيمة أو رجال عظام عوضا عن أن نصر على الحركات العظيمة الوئيدة التي تنتاب المؤسسات ، وعلى الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي تشكل القسم الهام والدائم في التطور الانساني ، الذي يمكن تحليله بالتأكيد ، وبطريقة تقربه من القانون . ان الحوادث والشخصيات البارزة لهي شارات ورموز لمختلف فترات هذا التطور . ولكن معظم الظاهرات ، التي توصف بالتاريخية ، هي بالنسبة الى التاريخ الحقيقي كنسبة الأمواج التي تطفو على سطح البحر الى الحركة العميقة الدائمة للمد والجزر ، فهي ، أي الامواج ، تتلون لفترة من الزمن ، بجميع الوان الضوء ، ثم تتناثر على الشاطيء دون ان تخلف منها شيئا . »

ان « لامبرخت » يعلن استعداده لتأييد مضمون هذا النص ومن المعروف ان العلماء الالمان يكرهون الاقرار بالموافقة على مايقوله العلماء الفرنسيون والعكس بالعكس . لهذا يشير المؤرخ البلجيكي « بيرين » ، **في المجلة التاريخية** الى هذا التماثل في الافكار بين « مونود » و « لامبرخت » ويخلص الى مايلي :

« ان التقاء عالم فرنسي بعالم الماني له مغزاه ، فهو يقيم الدليل على أن الاتجاه التاريخي الجديد قد ملك زمام المستقبل » .

— ٥ —

اننا لانشاطر « بيرين » الامل الذي يهدهده . ان المستقبل لايمكن ان يكون ملك نظريات مبهمة مشوشة كنظريات « مونود » وبخاصة نظريات « لامبرخت » . ومن الملائم طبعا الترحيب بالاتجاه القائل بأن موضوع التاريخ ، بخاصة ، انما هو دراسة المؤسسات الاجتماعية والشرائط الاقتصادية . ان هذا العلم سيخطو خطوات واسعة الى الامام عندما يسود هذا الاتجاه نهائيا . ولكن « بيرين » يخطيء اولا عندما يحسب ان هذا الاتجاه حديث العهد . لقد ظهر في ميدان العلوم التاريخية ، عام ١٨٥٠ ، اقطاب مثل غيزو وميني وأوغستان تييري وأخيرا توكفيل وغيرهم وكانوا الممثلين اللامعين لهذا الاتجاه في حين ان افكار مونود ولامبرخت ليست الا نسخة شاحبة عن اصل قديم ولكنه قيم ومرموق . ومن جهة ثانية ، فمهما سمت أفكار غيزو وميني وبقية المؤرخين الفرنسيين فقد خلفت نقاطا كثيرة يلفها الظلام . ولا نجد فيها جوابا دقيقا وشافيا لمسألة دور الفرد في التاريخ . ومهما يكن من امر فعلى علم التاريخ ان يجد حلا لهذه المسألة اذا اراد ممثلوه ان يتخلصوا من العصابة التي تحجب عنهم الرؤية ، ان المستقبل سيكون رهن المدرسة التي ستقدم ، فيما تقدمه ، افضل الحلول لهذه المسألة .

ان وجهات نظر غيزو وميني والمؤرخين الآبرين اتباع الاتجاه نفسه ، انما هي رد فعل للافكار التي تناولت التاريخ والتي تميز بها القرن الثامن عشر ، لقد كانت نقيض تلك الافكار . وفي خلال

القرن الثامن عشر كان هم المشتغلين بفلسفة التاريخ ان يردوا كل شيء الى **الفاعلية الواعية للافراد** . صحيح ان هذه القاعدة كان لها بعض الاستثناءات فأفق فيكو ومونتسكيو وهردر[1] مثلا كان اوسع مدى من ذلك . بيد أننا لانتكلم على الاستثناءات لهذا نرى ان معظم مفكري القرن الثامن عشر كانوا يفقهون التاريخ على النحو الذي ذكرناه . واستنادا الى وجهة النظر هذه نرى ، من الشيق ، معاودة قراءة الآثار التاريخية التي كتبها **مابلي** مثلا . وتبعا لمايقوله ما بلي فان **مينوس** هو الذي أوجد الحياة الاجتماعية والسياسية وحتى الاعراف نفسها لسكان جزيرة كريت ، وان **ليكورغ** ادى الخدمة نفسها بالنسبة للآسيدومون . ولئن كان الاسبارطيون « يزدرون الثروات » فما ذلك الا بفضل ليكورغ الذي « دخل افئدة المواطنين وخنق فيها جرثومة حب الثروة[2] » . واذا كان الاسبارطيون قد انحرفوا عن الطريق التي خط معالمها لهم الحكيم ليكورغ فما ذلك الا نتيجة خطأ **ليزاندر** الذي اكد لهم « ان تغير

---

(1) **فيكو** : فيلسوف ومؤرخ ايطالي جاء في النصف الاول من القرن الثامن عشر . **مونتسكيو** : عالم اجتماعي فرنسي جاء في الفترة نفسها . **هيردر** : فيلسوف ومؤرخ الماني جاء في الصف الثاني من القرن الثامن عشر . لقد جهد هؤلاء في مؤلفاتهم حتى يقيموا الدليل على أن التطور التاريخي يخضع لقوانين محددة وحتى يظهروا ان سير الاحداث التاريخية لايتعلق لا بارادة الملوك ورجال الدولة والحكام ولابرغائبهم . وظن فيكو أنه عثر على هذه القوانين في تناوب الازدهار والاضمحلال يعتور الامم ، على التوالي ، في دورة التاريخ الخالدة ، هذه الدورة التي تقررها الارادة الالهية . وحاول مونتسكيو وهيردر أن يقيما الدليل على هذه القوانين بالاثر الذي تخلفه في المجتمع العوامل الطبيعية وبخاصة الاقليم والبيئة الجغرافية .

(2) الاثار الكاملة للكاهن مايلي ، لندن ١٧٨٩ الجزء الرابع الصفحات ٣ ، ٤ ، ٣٢ و ١٩٢ .

الازمان والمناسبات يتقاضاهم عبقرية وسياسية جديدتين(١) »

ان المؤلفات التي تمليها مثل هذه العقلية ليست لها أية صلة بالعلم . فهي تكتب كالمواعظ وغرضها استخلاص « الدروس الاخلاقية » وقد هب المؤرخون الفرنسيون في عهد **الرستوراسيون** (عودة الملكية) في وجه هذه المفاهيم . وبعد الاحداث الجسام التي اختتم بها القرن الثامن عشر اصبح من المستحيل ، قطعاً ، التصديق بأن التاريخ هو من صنع شخصيات يتفاوت حظها من القيمة والنبل والمعرفة ، شخصيات توحي ، وفق اهوائها ، الى كتلة جاهلة طيعة ببعض العواطف وبعض الافكار . وفضلا عن ذلك ففلسفة التاريخ تجرح كبرياء الطبقة الوسطى التي يتسم بها المنظرون البرجوازيون . انهم ينصاعون للعواطف التي تبدت ، ابتداء من القرن الثامن عشر ، لدى ظهور الدرامة البرجوازية . وحتى تمكن معارضة المدرسة التاريخية القديمة يستعيد تييري الادلة والبراهين والحجج التي اتى بها بومارشي وآخرون غيره في معارضتهم المدرسةالجمالية القديمة(٢) واخيراً فانالاعاصير التي عصفت بأرجاء فرنسا قد بينت بجلاء ان سياقالحوادث التاريخية أبعد من ان يحدد بعمل الرجال الواعي . وهذه الظروف كانت كافية لتهيئة الافكار لان تتقبل وقوع الحوادث وفق ضرورة ضمنية تعمل بصورة عمياء ، شأن القوى الطبيعية ،ولكن على توافق مع بعض القوانين التي لا محيص عنها .

ومما هو جدير بالملاحة ، رغم أن أحدا لم يعره انتباها حتى

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٩ .

(٢) قارن أولى « الرسائل عن تاريخ فرنسا » مع دراسة للنوع الدرامي الجدي في الجزء الاول من الاثار الكاملة لبومارشي .

الآن ، هو ان المفهوم الجديد عن التاريخ بوصفه ارتقاء تحكمه القوانين ، قد طبق بدقة من قبل المؤرخين الفرنسيين ، في عهد الرستوراسيون ، وضمنوه مؤلفاتهم عن الثورة الفرنسية وهذا ماأظهرته مؤلفات مينيي وتييري .

ان شاتوبريان يصف المدرسة التاريخية الجديدة **بالجبرية** ويعدد في الموضوعات التي يثيرها مايلي :

« على المؤرخ الآخذ بهذه الطريقة ان يروي الفواجع دون حقد أو غضب وان يتكلم على الفضائل دون ميل او هوى ، وان يرمق بعين الحيدة المجتمع وكأنه خاضع لبعض القوانين التي لاتقاوم والتي يتم معها كل شيء وفقا لما يجب ان يحدث(١) . »

ان هذا القول خطأ محض ، فالمدرسة الجديدة لا تتقاضى المؤرخ مطلقا ان يلتزم الحيدة ازاء الاحداث . أن اوغستان تييري يعلن بوضوح ان الميول السياسية ، بشحذها ذهن الباحث، يمكن أن تساعده على اكتشاف الحقيقة(٢) . ويكفي ان نتنقل في ارجاء المؤلفات التاريخية التي كتبها غيزو وتيير ومينيي حتى نلمس تعاطفهم الحار مع البرجوازية في صراعها ضد الارستقراطية ، المدنية والدينية ، وفي تصميمها على سحق مطالب البروليتاريا النامية . ومما لاجدال فيه ان المدرسة التاريخية الجديدة قد **ظهرت** بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ،في الفترة التي غلبت فيها

---

(١) آثار شاتوبريان الكاملة عام ١٨٣٦ الجزء الاول ص ٣٤٠ . ونسترعي اهتمام القارىء الى الصحيفة التالية اذ يحسبها القارىء وكأنها كتبت من قبل م. ميكايلوفسكي .

(٢) « اعتبارات ملحوظة عن تاريخ فرنسا » الكتاب المتمم لـ « قصص عن زمن الميرفنجيين » ، باريس ١٨٤٠ ص ٨٢ .

الارستقراطية على امرها ، على يد البرجوازية ، وان تكن لاتزال تحاول استعادة بعض امتيازاتها القديمة . ومن بين الاعتبارات التي أخذ بها هؤلاء المؤرخون نلمس الشعور بالفخر لظفر الطبقة التي ينتمون اليها . وبما أن البرجوازية لا تعرف مجاملةالفروسية في مناحي عواطفها ، فاننا نعثر ، كثيرا ، في براهين ابرز علمائها ، على قسوة في الحكم على المغلوبين . ويقول غيزو في كراس جدالي له : « **أن الاقوى يمتص الاضعف وله الحق في ذلك** » . ولكن موقفه من الطبقة العاملة ليس بأقل قسوة . ان هذه القسوة التي تتزيا احيانا بالحيدة هي التي أوقعت شاتوبريان في الخطأ. وعلاوة على ذلك لا نعلم كيف ينبغي فهم الصيرورة التاريخية في **خضوعها للقوانين** . وأخيرا يمكن أن تبدو المدرسة الجديدة آخذة بمبدأ الجبرية لانها في محاولتها اثبات وجهة نظرها القائلة بأن التاريخ تسيره قوانين معينة قد قللت من اهتمامها بالشخصيات الكبيرة(١) . ويصعب الاقرار بذلك على أناس تشربوا الافكار التي جاء بها القرن الثامن عشر عن التاريخ . ولهذا السببترامت الاعتراضات من كل جانب على هذه المدرسة التي انفرجت فيها ثغرة من التناقض لم تسد بعد كما سلفت الاشارة .

---

(١) ففي مقالة كرست للطبعة الثالثة لكتاب « تاريخ الثورة الفرنسية » لمينيي بين سانت بوف الموقف الذي يقفه المؤرخ من الافراد : « ولدى رؤيته الاهتياجات الشعبية الواسعة العميقة التي يترتب عليه وصفها ومشاهد العجز والعدمية التي تتردى فيها اسمى العبقريات واشرف الفضائل ، في الوقت الذي تنتفض فيه الجماهير ، أخذته الشفقة على الافراد ولم ير فيهم ، وقد نظر الى كل منهم على انفراد ، الا الوهن ولم يعترف لهم بأي عمل مجد الا باتحادهم بالجمهور » .

وفي كانون الثاني من عام ١٨٢٦ كتب سانت بوف في مجلة « ليغلوب » بعد ظهور الجزأين الخامس والسادس من **تاريخ الثورة الفرنسية** لمؤلفه تيير بأن الانسان ، نتيجة المؤثرات التي يتعرض لها في كل وقت ، قادر ان يدخل في سياق الاحداث ، بقرار ارادي ، قوة جديدة غير متوقعة من شأنها ، في حالات كثيرة ان تعدل كثيرا في هذا السياق فتملي عليه وجهة اخرى . وهذه القدرة تتأبى على القياس لخصيصة التحول فيها .

ولا ينبغي أن يفهم أن سانت بوف يرى أن هذه **القرارات الإرادية** » تتم دونما اسباب تقتضيها . كلا ، ان ذلك لدليل على السذاجة . وقصاراه الاشارة الى أن الخصائص الثقافية والاخلاقية التي يتصف بها الانسان والتي تلعب دورا متفاوت الاهمية في الحياة العامة : (كمواهب الفرد ومعارفه وروح التصميم وعدم التردد والشجاعة أو الجبن لديه) لا تعدم أثرا ملموسا تحدثه في سياق الاحداث وخاتمتها . ولا تفسر هذه الخصائص بالقوانين العامة التي تحدد تطور الشعب فحسب ولكنها مدينة بوجودها دائما والى درجة بعيدة ، للفعل الذي تمكن تسميته : مصادفات الحياة الخاصة .

ولنورد بعض الامثلة التي تصور هذه الفكرة والتي تبدو مع ذلك واضحة من تلقاء نفسها .

حدث في اثناء حرب **وراثة النمسا** أن أحرزت الجيوش الفرنسية انتصارات مؤزرة كان بوسع فرنسا معها ان تلزم النمسا بالتخلي عن قسم كبير من بلاد البلجيك الحالية ، الا ان لويس الخامس عشر لم يقتضها ذلك لأنه كان يحارب ، على حد قوله ، بصفته ملكا لا تاجرا . ولكن لو كانت صفات لويس الخامس عشر

على غير ماكانت عليه لأمكن أن تتسع رقعة فرنسا الامر الذي يفضي الى احداث تعديل في سياق التطور الاقتصادي والسياسي لهـذه البـلاد .

ومن المعلوم ان فرنسا كانت ، في أثناء حرب **السنوات السبع** حليفة للنمسا ، وكانت مدام بومبادور،كما يقال،تساهم ، بدور فعال ، في دفع فرنسا للاشتراك مع النمسا في حربها لان مدام بومبادور امتلأت فخرا عندما وصفتها ماري تيريز ، ذات المكانة السامية ((**بابنة العم**)) و ((**بالصديقة الوفية**)) وذلك في الرسائل التي كانت تبعث بها اليها . ويجوز القول بأن لويس الخامس عشر او كان اكثر تماسكا وتشددا في اخلاقه واقل استرسالا واستسلاما لمحظياته لما كان بوسع مدام بومبادور أن تقوم بمثل هذا التأثير في سياق الاحداث ولكان بالامكان ان تأخذ وجهة اخرى .

ولنتابع : لقد كانت **حرب السنوات السبع** وخيمة العواقب على فرنسا وتكبد قوادها هزائم مخزية . وكان سلوكهم ابعث على الدهشة والاستغراب ، اذ اطلق الدوق ريشيليو لنفسه العنان سلبا ونهبا وكان سوبيز وبروغلي يتنابذان بلا انقطاع . وهكذا عندما هاجم بروغلي العدو قرب ولينجنكهوس لم يحمل سوبيز بدوره كما كان متفقا وكما كان ينبغي له أن يفعل فاضطر بروغلي ان يحارب وهو يتراجع (١) . وكانت مدام بومبادور ، في ذلك الحين ، تحامي عن سوبيز الذي أظهر عجزا فاضحا . وهنا يمكن القول ايضا لو ان لويس الخامس عشر كان اقل اندفاعا وراء شهواته وكانت

---

(١) ويزعم آخرون أن الخطيئة لم تكن خطيئة سوبيز وانما خطيئة بروغلي الذي لم يشأ أن ينتظر زميله حتى لايشاطره شرف النصر . ولاأهمية لذلك لانه لا يبدل شيئا من طبيعة الامور .

محظياته بعيدات من الشؤون السياسية لما أمكن ان تأخذ الحوادث هذا الشكل المفجع بالنسبة الى فرنسا .

ويؤكد المؤرخون الفرنسيون بأنه كان على فرنسا أن تتجنب الحرب في اوروبا وتوجه جهودها الى البحار لتدافع عن مستعمراتها ضد انجلترا ، فاذا لم تكن قد فعلت ذلك فالخطيئة هي خطيئة مدام بومبادور الخالدة التي كانت تود ان تدخل السرور الى قلب « صديقتها المخلصة » ماري تيريز . ان حرب السنوات السبع قد أفقدت فرنسا افضل مستعمراتها ، وقد ترك ذلك الحدث ، ولا ريب ، اعظم الاثر في تطور العلاقات الاقتصادية لهذا البلد . ان اترة امرأة واحدة تبدو هنا وكأنها « عامل » مؤثر في التطور الاقتصادي .

هل ثمة حاجة الى امثلة اخرى ؟ سنورد ايضا مثالا صارخا مستمدا من حرب السنوات السبع نفسها . ففي آب عام ١٧٦١ تمكنت القوات النمسوية ان تتم اتصالها بالجيش الروسي في سيليزيا وتم لها ان تحتوي ، ضمن هذا الطوق ، فريدريك بالقرب من ستريغو . وكان وضع الملك البروسي مؤيسا ولكن الحلفاء تأخروا في مهاجمته ، فبعد ان بقي بوتورلين (١) اكثر من عشرين يوما ساكنا لا يريم حراكا امام الخصم ترك سيليزيا نفسها ولم يبق الا قسما من قواته لدعم القائد النمسوي لودن . واحتل لودن مدينة شوويبيتز القريبة من معسكر فريدريك غير ان هذا النجاح ظل عديم الجدوى . فماذا كان يحدث لو كان بوتورلين امضى عزيمة ؟ أو لو هاجم الحلفاء فريدريك دون ان يتركوا له الوقت

---

(١) بوتورلين . آ (١٦٩٤ ــ ١٧٦٨) فيلد مارشال قاد الجيش الروسي خلال حرب السنوات السبع (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣) .

الكافي حتى يتحصن في معسكره ؟ يجوز ان يسحق جيشه ويجبر على الخضوع لجميع مطالب الظافرين . وقد حدث ذلك لشهور خلت من وقوع حوادث غير مرتقبة منها موت الامبراطورة اليزابيت، وقد عدلت تلك الحوادث فجأة وبصورة عميقة الوضع القائم لمصلحة فريدريك . ولرب متسائل يقول : ما الذي كان يحدث لو اخذ مكان بوتورلين قائد اكثر حزما كسوفوروف(١) مثلا .

ويورد سانت بوف في معرض تحليله آراء المؤرخين «الجبريين» فكرة ثانية خليقة بأن تسترعي انتباهنا . ففي مقالته المشار اليها عن كتاب **تاريخ الثورة الفرنسية** لمينيي يميل الى الافصاح عن أن سير الثورة الفرنسية ومآلها لم يكونا منوطين بالاسباب العامة التي اكتنفتها فحسب وبالميول والاهواء التي اهاجتها بدورها ، ولكنها كانت مشروطة ايضا بمجموعة من الحوادث الجزئية التي تستعصي على انتباه المؤرخ ، وهي اذا صح القول ليست معدودة من جملة الاحداث الاجتماعية . وقد كتب في هذا المعنى مبينا انه بينما كانت تلك الاسباب « العامة » تعمل عملها من حيث الاثر والسياق لم تكن القوى الطبيعية والفيزيولوجية معلقة بلا عمل فقد حافظ الحجر على ثقله النوعي والدم على جريانه في العروق . فلو لم تود تلك الحمى اللاهبة بميرابو ولو ان آجرة او انفجارا دماغيا أودى بحياة روبسبير او ان رصاصة اصابت بونابرت افلا يتغير وجه الاحداث؟ او كان بالمستطاع ان يظل اتجاهها ضمن النهج الذي اخذته دون تغيير ؟ وهل نجرؤ على الجزم بأن الخاتمة ستكون هي نفسها ؟ ونتيجة لوجود عدد كاف من المصادفات المماثلة يمكن للنتيجة ان تجيء على غير الشكل المحتوم الذي يدعيه بعضهم . ومن حقنا قبول هذه المصادفات لانها لا تستبعد الاسباب العامة التي نجمت

---

(١) سوفوروف (١٧٣٠ - ١٨٠٠) القائد الروسي الشهير .

عنها الثورة ولا الاهواء التي احتوتها تلك الاسباب .

ثم يذكر المثال المعروف عن انف كليوبترا فلو كان اقصر قليلا مما كان عليه لتغير وجه العالم . وحتى يصل الى نتيجة ، مع اعترافه بأن العديد من البراهين تدور في صالح النص الذي أورده مينيي ، يشير الى ان خطا مينيي راجع الى اعتباره عمل الاسباب العامة وحده هو الباعث على نتائج ساهمت في ايجادها جملة من الاسباب المغمورة الغامضة التي تصعب الاحاطة بها . ان تفكيره الصلب يبدو وكأنه يرفض الاقرار بوجود شيء لا يرى له نظاما أو قانونا .

- ٦ -

هل تقوم اعتراضات سانت بوف على أساس ؟ انها تنطوي على جانب من الحقيقة ، ولكن ما هو هذا الجانب ؟ لا بد لابرازه من تفحص الفكرة القائلة بأن الانسان كفوء « بقرار ارادي » لان يدخل على سياق الاحداث قوة جديدة تستطيع تعديلها بشكل ملحوظ . وقد قدمنا آنفا عدة امثلة تبدو كافية لتوضيح ما رمينا اليه . فلنتأمل هذه الامثلة .

لا أحد يجهل ان قدرة فرنسا العسكرية ، في زمن لويس الخامس عشر ، ما انفكت تتدنى باطراد . وقد لاحظ هنري مارتان أن الجيوش الفرنسية ، في أثناء حرب السنوات السبع ، كانت تجر خلفها أرهاطا من المومسات والتجار والخدم وتضم من جياد الجر والنقل ثلاثة أضعاف ما تضمه من جياد الركوب . ووضعها هذا يذكر الى حد بعيد بعصائب داريوس واكسيركيس اكثر مما يذكر بجيوش تورين وغوستاف أدولف (١) . وقد كتب ارشينهولتز في تاريخه ، عن حرب السنوات السبع ان الضباط الفرنسيين غالبا ما كانوا يبارحون مراكزهم ليذهبوا الى القصبات ويرقصوا هناك . وكانوا لا ينفذون اوامر رؤسائهم الا عندما يروق لهم ذلك . وهذه الحالة المؤسفة انما ترد الى انحطاط طبقة الاشراف التي مازالت متمكنة من ناصية المناصب الهامة في الجيش كما يعوذ الى

(١) « تاريخ فرنسا » الطبعة الرابعة ، الجزء الخامس عشر ص ٥٢٠ — ٥٢١ .

الفوضى الشاملة التي كانت تلازم « النظام القديم هذا النظام الذي يسير بخطى حثيثة نحو الكارثة » . فهذه الاسباب **العامة** ، بمفردها . كافية لان تجعل حرب السنوات السبع تسير في غير صالح فرنسا . ولكن من المؤكد أن قصور القواد امثال سوبيز كان من شأنه أن يزيد في احتمالات الهزيمة التي لحقت بفرنسا والتي تبعثها الاسباب العامة . وبما ان سوبيز مدين بمنصب القيادة لمدام بومبادور فعلينا الاعتراف بأن المركيزة ، المأخوذة بالخيلاء ، كانت أحد « العوامل » التي زادت من فعل الاسباب العامة ذات الاثر المفجع بالنسبة لفرنسا في حرب السنوات السبع .

والنفوذ الذي كانت تتمتع به المركيزة دي بومبادور لم يكن راجعا الى قوتها وحدها وانما كان ناجما عن سلطة الملك الراضخ لمشيئتها . وهل يمكننا القول بأن خلال لويس الخامس عشر كانت ما هي عليه ، ضرورة ، بالنظر للسياق العام الذي أخذه تطور العلاقات الاجتماعية في فرنسا ؟ قطعا لا . ان السياق التاريخي سيظل ماضيا في نهجه، ويجوز ان يشغل مكان لويس الخامس عشر ملك آخر لا يؤثر النساء ايثاره لهن ، ولعل سانت بوف يقول عندئذ بأن ذلك قد تم نتيجة لفعل الاسباب الفيزيولوجية الغامضة ، وسيكون على حق في ما يقوله . واذا كان الامر كذلك فمن طبائع الامور أن مجرى حرب السنوات السبع وخاتمتها قد أثرتا في تطور فرنسا الاقتصادي ، هذا التطور الذي كان من شأنه ان يأخذ وجهة اخرى فيما لو ان حرب السنوات السبع لم تحرم فرنسا من معظم مستعمراتها .

ولكن الا تتعارض هذه النتيجة مع الفكرة القائلة بأن التطور

الاجتماعي يتم وفق قوانين محددة ؟

الجواب قطعا : لا ، فمهما بدا فعل الخصائص الفردية ، في الحالة المذكورة آنفا ، ثابتا لاينازع فيه ، فمما لاينازع فيه ايضا ان هذا الفعل لا يمكن ان يتحقق الا في **شروط اجتماعية محددة.** وبعد هزيمة « روسباخ » بلغ حنق الفرنسيين على حامية سوبيز مبلغا لا حدود له. . وكانت تتلقى كل يوم عددا من الرسائل المغفلة المليئة بالسباب والتهديد . وقد أثر ذلك في مدام بومبادور وحرمها الرقاد(١) ومع ذلك فلم تكف عن حماية سوبيز ، وقد اشارت عام ١٧٦٢ في رسالة بعثت بها اليه الى انه لم يحقق الآمال المعقودة عليه وتضيف الى قولها هذا ما نصه : **((لا تخش شيئا سأرعى مصالحك وسأحاول ان اعيد الصفاء بينك وبين الملك))(٢) .**

وهكذا نراها لا تكترث للراي العام فلمَ كل ذلك ؟ من الثابت ان مرد ذلك يرجع الى ان المجتمع الفرنسي ، آنئذ . لم تكن لديه **الوسائل الكفيلة بارغامها على الاكتراث له .** ولكن لماذا لم يستطع المجتمع الفرنسي أن يحملها على الاكتراث له ؟ لقد حال دون ذلك تكوين المجتمع الفرنسي الذي يرجع بدوره الى علاقة القوى الاجتماعية القائمة في فرنسا يومئذ . ويتضح ، بالتالي ، بهذه العلاقة ، لماذا امكن لشخصية لويس الخامس عشر ولرغائب محظياته ان تترك اثرا مفجعا في مصير فرنسا . ولو ان هذا الاستسلام للنساء كان خصيصة من خصائص الطباخين أو السوّاس في البلاط

---

(١) « مذكرات مدام هوسيه » باريس ١٨٢٤ ص ١٨١ .

(٢) « رسائل المركيزة دي بومبادور » لندن ١٧٨٢ الجزء الاول ص ٩٢ .

لا خصيصة من خصائص الملك نفسه لما كان له أي أثر تاريخـي . ومن الجلي اننا لا نهتم لهذا الضعف الا بقدر المكانة الاجتماعية التي يشغلها من ابتلي فيه . ويدرك القارىء ان هـذا التعليل يمكن أن ينطبق على جميع الامثلة الواردة آنفا . ويكفي ان يبدل ما ينبغـي تبديله كأن يضع « روسيا » مكان « فرنسا » و « بوتورلين » مكان « سوبيز » .. الخ وعلينا ألا نعيد ما سبق بيانه .

ونخلص الى ان الافراد ، بفضل الخصائص والميزات التـي يتمتعون بها يمكنهم ان يؤثروا في مصير المجتمع . ويمكن ان يكون أثرهم شديدا الا ان امكان هذا التأثير وكذلـك اتساعه او مـداه محددان بتنظيم المجتمع وبعلاقات القوى الاجتماعية . ان سجـايا الفرد ليست « عاملا » من عوامل التطور الاجتماعـي الا بمقدار ما تسمح العلاقات الاجتماعية بذلك ويبقى هذا العامل ما سمحت به هذه العلاقات وبالشكل الذي تبيحه .

من الممكن ان يعترض علينا بأن الاثر الذي يحدثه الفرد انما يعود الى مواهبه ! نحن على وفاق في الرأي غير ان الفرد لا يستطيع ابراز مواهبه الا عندما يحتل في المجتمع مكانا يتيح له ذلك . فلماذا وجد مصير فرنسا نفسه في يد رجل تنقصه الاهلية اللازمة وتنعدم فيه الرغبة لتكريس نفسه للصالح العام ؟ ان ذلك يرد الى التنظيم الاجتماعي ، فالتنظيم الاجتماعي هو الذي يحدد ، في كل حـين ، الدور وبالتالي الاهمية الاجتماعية التي يمكن ان توسـد الى بعض الشخصيات الموهوبة او عديمة الاهلية .

ولكن اذا كان دور الفـرد مرتهنا بالتنظيـم الاجتماعي فأنى للتأثير الاجتماعي، المشروط بهذا الدور ، ان يناقض الفكرة القائلة

بأن التطور الاجتماعي يسير وفق قوانين ثابتة ؟ ان هـــذا الدور لا يتعارض والمفهوم المشار اليه وانمـا هو وجه من اوجه التعبـير الصارخة عنه .

وتجدر الاشارة الى ان امكان تأثير الفرد في المجتمع ، هـذا الامكان الذي يحدده التنظيم الاجتماعي ، يفتح الباب واسعا امـام تأثير ما يسمى **المصادفات** على المصير التاريخي للشعوب. ان شهوانية لويس الخامس عشر كانت نتيجة ضرورية لتكوينه الشخصي ،ولكن ذلك ، بالقياس الى السياق العام للتطور الفرنسي ، كـان مجرد مصادفة . ومع ذلك فقد ترك هذا التكوين الشخصي أثره في مستقبل فرنسا وكان احد الاسباب التي حددت هذا المستقبل . ان مـوت « ميرابو » ، كان بالبداهة ، نتيجة تطور مرضي يخضع لقوانـين الطبيعة ، ولكن ضرورة هذا التطور لا علاقة لها بسير التطور العام في فرنسا . لقد نجم الموت عن بعض الصفـات التي تتميز بهـا البنية العضوية لذلك الخطيب المفـوه وللشروط الفيزيائية التـي تسرب ، من خلالها ، الداء اليه . وهذه الصفات وهذه الاسبـاب لا تعدو كونها مجرد مصادفات بالقيـاس الى سير التطور العـام لفرنسا . ومع ذلك فقد ترك موت « ميرابو » ابلغ الاثر في سيـاق الثورة اللاحق ، وينبغي ادراجه في عداد الاسبـاب التي استدعت تلك الثورة .

ان عمل الاسباب العرضية لأيرزوأبين في المثل المضروب عن « فريدريك » الذي نجا من المأزق الذي وقـع فيـه نتيجة تردد «بوتورلين» . ولكن تسمية «بورتورلين» ، بالنسبة الى التطور العام لروسيا ، لا يعد وكونه امرا عرضيـا ، بالقدر الـذي سلفت

الاشارة اليه ، وبدهي أن هذه التسمية لم تكن لها أية علاقةبالسياق العام لتطور بروسيا . ومع ذلك فثمة ما يدعو للافتراض بأن تردد « بوتورلين » هو الذي انقذ « فريدريك » . ولو كان «سوفوروف» مكان « بوتورلين » لامكن ان يبدل هذا من تاريخ بروسيا . وتبعا لذلك نرى أن مصائر الامم مرتهنة بالمصادفات التي يمكن ان نسميها **مصادفات من الدرجة الثانية** . كان هيجل يقول :

« كل ما هو تام ينطوي على عنصر من عناصر المصادفة » .

ففي مجال العلم لا ينصرف اهتمامنا الا الى الشيء «التام» لهذا يمكننا القول بأن جميع ظاهرات التطور التي يدرسها العلم تنطوي على عنصر من عناصر المصادفة . ولكن الا ينفي ذلك امكان المعرفة العلمية للحوادث ؟ قطعا لا ، لان المصادفة ظاهرة نسبية ، فهي لا تبدو الا في نقاط التقاطع التي تتصالب فيها ظاهرات التطور **الضرورية** . ان ظهور الاوروبيين في اميريكا كان بالنسبة الى سكان المكسيك والبيرو مجرد مصادفة بمعنى انه لم يتأت عن التطور الاجتماعي لتلك البلاد . غير ان الشغف بخوض البحار ، هذا الشغف الذي استحوذ على الاوروبيين في الغرب ، في نهاية القرون الوسطى ، لم يكن مصادفة وكذلك السهولة التي كانت قدرة الاوروبيين تحطم بها مقاومة السكان الاصليين . ولم تكن نتائج فتح المكسيك والبيرو من قبيل المصادفات لانها نجمت عن محصلة قوتين : الوضع الاقتصادي للبلاد المحتلة ، من جهة ، والوضع الاقتصادي للفاتحين من جهة اخرى. وهاتان القوتان ومحصلتهما يمكن أن تكون موضوع دراسة علمية دقيقة .

ان المصادفات التي رافقت حرب السنوات السبع تركت ابلغ الاثر في تاريخ بروسيا . غير أن هذا التأثير ، لو وقع في مرحلة

أخرى من مراحل تطورها ، لامكن ان ينتهي الى نتائج أخرى . وهنا أيضا كانت نتائج المصادفات محددة بمحصلة قوتين : الحالة الاجتماعية والسياسية التي تسود بروسيا ، من جهة ، وحالة الدول الاوروبية التي كانت تبسط نفوذها عليها ، من جهة اخرى. وهنا أيضا نجد ان عامل المصادفة لا يحول دون القيام بدراسة علمية للظاهرات .

نحن نعلم الآن أن الافراد يتركون غالبا ابلغ الاثر في مصير المجتمع ، غير ان هذا الاثر انما تحدده البنية الداخلية لهذا المجتمع وموقع هذا المجتمع من المجتمعات الاخرى . ولكن هذه الفكرة لا تستنفد مسألة دور الفرد في التاريخ ، وعلينا الآن تناول الموضوع من منحى آخر .

لقد كان « سانت بوف » يحسب أن جملة من بسائط الاسباب الغامضة ، تشاكل الاسباب التي المع اليها ، يمكنها ان تهيء للثورة الفرنسية نتيجة مناقضة للنتيجة المعروفة . وذلك خطل فاضح. وبالغا ما بلغ تداخل الاسباب السيكولوجية والفيزيولوجية البسيطة فلم يكن بمستطاعها ان تستبعد الحاجات الاجتماعية الجسيمة التي اكتنفت الثورة الفرنسية . وطالما ان هذه الحاجات لم تلب فما كان بمقدور الثورة أن يهدأ لها أوار في فرنسا . وحتى يمكن لهذه الحركة ان تؤول الى نتائج مغايرة لما هو معروف ، كان حتما عليها ان تحل مكان الحاجات الراهنة حاجات جديدة مغايرة لها . وبدهي ان أي اجتماع لتلك البسائط من الاسباب لا يمكن ان يوجد تلك الحاجات .

لقد قامت دواعي الثورة الفرنسية على طبيعة العلاقات

الاجتماعية نفسها بينما بسائط الاسباب التي يفترضها « سانت بوف » لا يمكن ان تكمن الا في **الخصائص الفردية** التي يتصف بها الافراد . وفي واقع ما بلغته قوى الانتاج يكمن السبب الاول للعلاقات الاجتماعية ، وهي لا ترتهن بالخصائص الذاتية ، لهذا الفرد أو ذاك ، الا بمقدار ما يكون هؤلاء الافراد أقدر على احكام الفن التطبيقي والاتيان بالمخترعات والمبتكرات . وليست هذه الخصائص هي كل ما فكر فيه « سانت بوف » ، ولكن ما من خصيصة أخرى ، يمكن استحضارها ، بقادرة ان تؤثر مباشرة في حالة القوى المنتجة ، وبالتالي في العلاقات الاجتماعية التي تحدد وجودها أي في **العلاقات الاقتصادية** التي تبتعثها . وبالغا ما بلغت الخصائص الفردية لشخص ما فليس بامكانه ان يلغي العلاقات الاقتصادية القائمة اذا كانت تلك العلاقات تتوافق وحالة القوى المنتجة .

ان خصائص الفرد الشخصية تجعل صاحبها أقدر على تحقيق الحاجات الاجتماعية الناشئة عن العلاقات الاقتصادية القائمة أو معارضتها .وهكذا كانت فرنسا، من الوجهة الاجتماعية، بحاجة قصوى ، في نهاية القرن الثامن عشر ، لان تحل مكان المؤسسات السياسية البائدة مؤسسات أخرى أكثر انطباقا على نظامها الاقتصادي الجديد . ان انجع رجال السياسة المرموقين ، في ذلك الحين ، هم الذين استطاعوا ، اكثر من سواهم ، الاسهام في تحقيق هذه الحاجة الملحة. ولنسلم بأن«ميرابو» و «روبيسبير» و « بونابرت » كانوا من هذا النفر من الناس ، فما الذي كان يحدث لو ان الموت المبكر لم يختطف « ميرابو » ويقصه عن مسرح السياسة ؟ اكان الحزب الملكي الدستوري يستمر طويلا محافظا على قوته ؟ وهل كانت مقاومته للجمهوريين تشتد عنفا واحتداما ؟

تلكم هي المسألة . ما من « ميرابو » في الدنيا كان بوسعه أن يحول دون ظفر الجمهوريين . ان قوة « ميرابو » تكمن في تأييد الشعب له وثقته به . والشعب يريد الجمهورية والبلاط يستثيره باصراره على الدفاع عن النظام القديم ، وعندما يحيط الشعب علما ويقتنع بأن « ميرابو » لا يوافقه في نزعاته الجمهورية فسوف يكف عن تأييده ، ومن المحتمل ان يفقد هذا الخطيب المفوه كل نفوذه قبل أن يصبح ، بلا ريب ، ضحية من ضحايا الحركة التي جاهد عبثا لايقافها .

ويصدق هذا القول او ما يقاربه على «روبيسبير» . ولنفترض أنه كان من حزبه على جانب من القوة لا يمكن ان تتوافر لشخص سواه . ولكن ذلك لم يكن ليجعله قوة الحزب كلها . فلو انه قتل في كانون الثاني من عام ١٧٩٣ نتيجة لسقوط آجرة عليه ، لحل مكانه شخص آخر حتى ولو كان دونه من عدة وجوه ، ولن تكف الاحداث عن السير وفاق ما كانت ستصير اليه وفي **الاتجاه نفسه.** وما كان بمقدور الجيرونديين ، حتى في هذه الحالة ، تحامي الهزيمة التي حاقت بهم ، ويمكن ان يفقد حزب روبيسبير السلطة في زمن اقصر ، وعندئذ ما كنا نتحدث عن الحركة الانقلابية التي جرت في شهر ترميدور بل كان بوسعنا ان نتحدث عن حركة جرت في شهر فلوريال او بريليال او مسيدور . وقد يوجد من يقول بأن « روبسيير » في حركته الارهابية الصاخبة كان ابعد من ان يؤخر في سقوط حزبه بل لعله كان قد عجل فيه . ونحن هنا لا نناقش هذا الاحتمال ولنفترض انه يقوم على دعائم راسخة . وفي هذه الحالة يتم سقوط حزب روبسيير لا في شهر ترميدور بل في شهر فريكتيدور أو فنديمير او برومير . وسيتم سقوطه عاجلا او آجلا .

وكان ذلك أمرا مقضيا لان طبقات الشعب التي كان يرتكز عليها هذا الحزب لم تكن مهيأة لان تمكث في الحكم طويلا . وعلى كل حال فلا يمكن الكلام هنا على نتائج « مناقضة » للنتائج التي اسهم عمل روبسبير العنيف في ايجادها .

ولا يزيد على ذلك افتراضنا ان رصاصة قضت على حياة نابلين في معركة « اركول » . ان ما قام به في معارك ايطاليا وغيرها كان بوسع قواد آخرين ان يقوموا به . وقد يتحقق ذلك بمواهب ادنى نسبيا دون ان يستتبع احراز انتصارات مؤزرة . غير أن الجمهورية الفرنسية كانت ستخرج ظافرة ، على كل حال ، من الحروب التي خاضتها ، لان جنودها كانوا أفضل جنود أوروبا قاطبة . واما ما يتعلق بانقلاب ١٨ برومير وأثره في حياة فرنسا الداخلية فنجد ، هنا ايضا ووفقا للاحتمالات كافة ، بان السياق العام والنتائج الناجمة عن الاحداث ، ستكون ، **من حيث الاساس،** النتائج نفسها التي تمت تحت حكم نابليون . ان **الجمهورية** التي تلقت الضربة القاضية في ٩ ترميدور كانت سبيلها الاحتضار البطيء. وستعجز حكومة الادارة (الديركتوار) عن اقرار النظام وهو ماترومه البرجوازية قبل كل شيء بعد أن خلعت نير الانظمة الاخرى . وكان يلزم لاستتباب النظام «سيف ماض» على حد تعبير «سييز». وفي سبيل ايجاد هذا «السيف المحسان» انصرف التفكير الى جوبيرت ولكن جوبيرت قتل في «نوفي» فجرت على الالسنة اسماء مورو ومكدونالد وبرنادوت(١) ، ولم يذكر اسم نابليون الا مؤخرا . ولو ان نابليون قتل كجوبيرت لما كان موضع بحث ولكان عثر على

---

(١) « الحياة في فرنسا خلال الامبراطورية الاولى » بقلم الفيكونت ديبروك. باريس ١٨٩٥ صحيفة ٣٥ ـ ٣٦ والصفحات التالية .

« سيف » آخر .

وغني عن القول ان الرجل الذي توصله الاحداث الى مقام الديكتاتورية يترتب عليه ان ينزع ، بلا هوادة ، الى السلطةوان يدوس ويسحق ، دون رحمة أو شفقة ، كل من يقف في طريقه . وكان بونابرت يتمتع بارادة حديدية ولا يدخر وسعا للوصول الى أهدافه . ولكنه لم يكن اوحد عصره في الانانية والقدرة والمواهب والطموح . والمكان الذي نجح في اشغاله لم يكن بالمقدر له ان يظل شاغرا .

ولنفترض ان قائدا آخر تسنم هذا المنصب وكان أكثر ايثارا للسلم ولم يؤلب عليه أوروبا . ثم قضى نحبه في قصر التويلري بدلا من جزيرة سانت هيلين ، وعندئذ ما كان بمقدور آل بوربون أن يعودوا الى فرنسا . وهذه النتائج، بالنسبة اليهم ، تغدو مغايرة لما حدث فعلا . . اما اذا أخذت القضية بالنسبة الى سياسة فرنسا الداخلية ، فلن تختلف النتائج عما تم فعلا الا بالقدر اليسير . لان هذا « السيف الماضي » بعد ان يستتب النظام وتتأكد سيطرة البرجوازية ، لا يلبث ان يتعبها مدفوعا باستبداديته وبالعادات المستحكمة في نفسه من حياة الثكنات . وعندئذ تقوم حركة ليبرالية كالتي حدثت في عهد « الرستوراسيون » ويشتد النضال شيئا فشيئا . وبما أن « السيوف المواضي » تفتقر الى المرونة فمن المحتمل ان يرقى « لويس فيليب » الفاضل عرش أبناء عمومته الاعزاء لا في عام ١٨٣٠ وانما في عام ١٨٢٠ أو في عام ١٨٢٥ . وهذه التغيرات التي تطرأ على سياق الاحداث كان من شأنها أن تؤثر ، الى درجة ما ، في الحياة السياسية الداخلية لاوروبا وبالتالي في حياتها الاقتصادية . ولكن النتيجة النهائية لم يكن بمقدورها ، بأي

بقوى اخرى .

- ٧ -

وهاكم ايضا ما تجب ملاحظته .

اننا ، في مناقشتنا دور الرجال العظام في التاريخ نقع فريسة خطأ في التقدير نرى من المفيد استرعاء انتباه القارىء اليه .

عندما اخذ نابليون على عاتقه القيام بدور « السيف الماضي » المدعو الى انقاذ النظام الاجتماعي نحى عن القيام به جميع القـواد القادرين على اتيان ما فعله بما يماثله او يقاربـه . وعندمـا دعت الحاجة الاجتماعية لديكتاتور عسكري اوحد، صلب العود، حالت الهيئة الاجتماعية دون اشغال هذا المكان من قبل القواد العسكريين الآخرين الموهوبين . ومنذ ذلك الحين حالت قوة هذه الهيئة دون ظهور مواهب من الطراز نفسه . ومن هذه الناحية جاء خطأ التقدير الذي المعنا اليه . ان قدرة نابليون الشخصية تبدو لنا مبالغا فيها كثيرا لاننا ننسب اليه كل القوة الاجتماعية التي دفعت به الى المكان الاول وايدته بدعمها . ولئن تبدت لنا قدرته الشخصية خارقة ، فما ذلك الا لان القدرات الاخرى لم يقيض لها ان تخرج من عالم **القوة** الى عالم **الفعل** . وعندما يطرح هذا السؤال : ما الـذي كان سيحدث لو لم يظهر نابليون ؟ تتيه مخيلتنا في تأملاتها وتتراءى لنا الحركة الاجتماعية التي ترتكز عليها قوته مستحيلة التحقق بدونه.

في تاريخ التطور الثقافي للانسانية يغدو من الندرة بمكان أن يطمس نجاح فرد المعية فرد آخر . ونحن ، دواليك ، عرضة للخطأ

في التقدير الذي نوهنا به . فعندما يطرح الوضع الاجتماعي أمام ذوي الفكر الناطقين باسمه جملة من المهام تجتذب هذه المهام انتباه بقية الادمغة المفكرة حتى تتحقق . وعندما تتحقق ينصرف انتباههم الى مواضيع أخرى . وحينما ينجز الشخص الموهوب (آ) المهمة (س) ينصرف انتباه الشخص (ب) الى مهمة أخرى هي (ع) . وعندما يطرح هذا السؤال : ما الذي كان يحدث لو أن (آ) قضى نحبه قبل ان ينجز المهمة (س) فقد يتخيل المرء ، لاول وهلة ، أن سمط التطور الفكري قد انفرط عقده ، وننسى أن موت (آ) يجعل (ب) أو (ج) أو (د) يأخذ كل منهمُ على عاتقه اتمام هذه المهمة . وبذلك يستمر عقد التقدم بالرغم من موت (آ) السابق لاوانه .

وثمة شرطان لا بد من توافرهما حتى يتمكن شخص موهوب، يتمتع بخلال معينة ، من أن يحدث بواسطتها تأثيرا عميقا في سياق الاحداث . ينبغي لهذا الشخص ، أولا ، ان يستجيب ، بفضل مواهبه ، اكثر من سواه لحاجات الزمن الاجتماعية ، وبدهي ان نابليون لم يكن بمقدوره أن يصبح امبراطورا فيما لو اوتي بدلا من العبقرية العسكرية عبقرية موسيقية كبتهوفن . وينبغي ثانيا الا يقف النظام الاجتماعي القائم عائقا امام الفرد الحائز على الاهلية التي تستدعيها الفترة الزمنية المعينة . ولو ان النظام القديم استمر خمسا وسبعين سنة اخرى لما زاد اعتبار نابليون بعد موته عن كونه لواء مغمورا او بالاحرى العميد نابليون(١) . وفي عام ١٧٨٩ كان

---

(١) ومن الممكن ان يتوجه نابليون الى روسيا ، كما دار بخلده لسنوات خلت من نشوب الثورة . وهناك كان من المحتمل ان يوجه ضد الاتراك أوضد الجبليين في القفقاز . ولكن مامن احد كان يقدر أن هذا الضابط الفقير ، ولكنه الكفوء ، كان بامكانه أن يصبح سيد العالم لو ساعفته الظروف .

القواد « دافو » و « ديزي » و « مارموت » و « مكدونالد » برتبة ملازمين ثانين وكان «برنادوت» برتبة رقيب . وكان « هوش » و « مارسو » و « ليفيفر » و «بيشفر» و « ناي » و « مسينا » و « مورا » و « سولت » في عداد صف الضباط . وكان « أوجيرو» مدربا في لعبة المبارزة بالسلاح و « لان »صباغا و « غوفيون سان سير » ممثلا و « جوردان » بائع حوائج نسائية و « بيسيير » حلاقا و « برون » طوبوغرافيا و «جوبيرت» و «جينو» طالبين في كلية الحقوق و «كليبر» مهندسا معماريا . ولم يكن « مورتيه» قد أدى بعد خدمته العسكرية في الجيش[١] .

ولو ان النظام القديم قد امتد الى يومنا لما كان ليدور في خلد أحد منا ان الممثلين والطوبوغرافيين والحلاقين والصباغين والطلاب في معهد الحقوق وبائعي أدوات الزينة ، سيصبحون من العسكريين البارزين واصحاب النفوذ في فرنسا وفي نهاية القرن الماضي[٢] .

لقد لاحظ ستندال ان رجلا ولد في السنة التي ولد فيها « تتين » أي عام ١٤٧٧ ، بوسعه ، خلال أربعين سنة ، أن يكون معاصرا « لرافاييل » الذي توفي عام ١٥٢٠ و « ليونارد دي فنسي»

---

(١) « تاريخ فرنسا » لمؤلفه : ت . دوري . باريس ١٨٩٣ الجزء الثاني ص ٥٢٤ – ٥٢٥ .

(٢) في اثناء حكم لويس الخامس عشر ، توصل شخص واحد من الطبقة الثالثة هو « سيفري » الى رتبة لواء . واصبح الوصول الى الوظائف العسكرية بالنسبة الى رجال هذه الطبقة امرا اعسر منالا في ايام لويس السادس عشر . رامبو : « تاريخ الحضارة الفرنسية » الطبعة السادسة ، الجزء الثاني . ص ٢٢٦ .

المتوفى عام ١٥١٩ ، وان يقضي سنين طوالا مع « كورييج » المتوفى عام ١٥٣٤ و « ميكيل أنج » المتوفى عام ١٥٦٣ ، ولن يزيد عمره عن ٣٤ سنة عند وفاة « جيورجيون » ويمكنه ان يتعرف على « تنتوري » و « باسانو » و « فيرونيز » و « جول رومان » و « اندريا ديل سورتو » ، وباختصار يجوز ان يصبح معاصرا لمشاهير الرسامين الايطاليين ما خلا المنتسبين منهم الى مدرسة « بولوني » والذين ظهروا بعد مضي قرن من ذلك التاريخ .وبالمقابل يمكننا القول ان شخصا ولد في السنة نفسها التي ولد فيها « رومان » كان بوسعه ان يتعرف على جميع مشاهير الرسامين الهولنديين (١) وان شخصا له مثل عمر شكسبير كان بمقدوره ان يكون معاصرا لمجموع المسرحيين العظام (٢) .

ولو لوحظ منذ زمن بعيد ان الرجال الموهوبين يظهرون حيثما تكون الشروط الاجتماعية ملائمة لنموهم وهذا يعود بنا الى القول

---

(١) « تاريخ الرسم في ايطاليا » باريس ١٨٩٢ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) « تربورش » و « بروور » و « رامبراندت » ولدوا عام ١٦٠٨ . « اورمان فان استاد » و « بوث » و « فردينانديول » ولدوا عام ١٦١٠ . « فان ديرهيلست » و « جيرار دوف » ولدا عام ١٦١٣ ، وولد « ميتز » عام ١٦١٥ و « رومان » عام ١٩٢٠ و « وينسك » و « ايترونجن » و « بيناكر » عام ١٦٢١ و « وبرجهيم » عام ١٦٢٤ و « بول بوتر » عام ١٦٢٥ و « هان ستين » عام ١٦٢٦ و « روبسدايل » عام ١٦٣٠ و « فان ديرهيدن » عام ١٦٣٨ و « هوبيما » عام ١٦٣٨ و « ادريان فان دين فيلد » عام ١٦٣٩ .

(٢) ان « شكسبير » و « بومونت » و « فليتشر » و « جونسون » و« ووبستر» و « ماسينجر » و « فورد » و « ميدلتون » و « هيوود » ظهروا معا أو واحدا اثر واحد مشكلين جيلا مفضلا ازدهر ازدهارا واسعا على أرض أخصبتها جهود الجيل السابق . (تين : تاريخ الادب الانجليزي) باريس ١٨٦٣ الجزء الاول ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .

بأن كل موهبة **تظهر** ، اي تصبح **قوة اجتماعية ، لهي ثمرة العلاقات الاجتماعية** . وعندئذ نستطيع ان ندرك ، كما قلنا ، لماذا لا يتمكن الرجال الموهوبون الا تعديل السمة الخاصة للاحداث لا السياق العام لها . ذلك ان **هؤلاء الرجال انفسهم لا يوجدون الا بفضل هذا السياق العام ، ولولاه لما كان بمستطاعهم ان يتخطوا العتبة التي تفصل الممكن عن الواقع** .

ومما لا ريب فيه ان ثمة موهبة وموهبة وقد قال « تين » بحق (١) :

« عندما تدفع حضارة جديدة فنا جديدا في طريق التطور . يتوافر عشرة من الموهوبين الذين يعبرون نصف تعبير عن الفكرة العامة ويحتويها اثنان او ثلاثة من العباقرة الذين يعبرون عنها بتمامها » .

واذا ما عملت أسباب آلية أو فيزيولوجية ، لا علاقة لها بالمسيرة العامة للتطور الاجتماعي والسياسي والثقافي في ايطاليا ، على قتل « رافاييل » و « ميكيل انج » و « ليونارد دي فنسي » في المهد فلا بد ان ينتقص ذلك من كمال الفن الايطالي . ولكن اتجاهه العام ، في فترة عصر النهضة ، كان سيظل على نهجه ، لان هذا الاتجاه لم يوجده « رافاييل » او « ميكيل انج » او « ليونارد دي فنسي » وانما كانوا التراجمة الصادقين عنه . ولا ريب في ان كل مدرسة تنبثق عن شخص عبقري تحمل اتباعه على ان يبذلوا قصارى جهدهم ليمتلكوا أقل طرائقها شأنا . ولئن طوى الموت مبكرا « رافاييل » و « ميكيل انج » و « ليونارد دي فنسي »

---

(١) تين : « تاريخ الادب الانجليزي » باريس عام ١٨٦٣ الجزء الثاني ص ٤ .

فلا بد ان يترك موتهم نقصا في الفن الايطالي الملازم لعصر النهضة يؤثر بدوره ، وبشدة ، في عدد من الخصائص الثانوية التي يشتمل تاريخه عليها . غير ان هذا التاريخ ما كان ليتبدل اذا لم تتم ،خلال التطور الثقافي لايطاليا ، تغيرات ترجع الى الاسباب العامة .

ومما لا شك فيه ان الفروق الكمية تنتهي الى ان تصبح فروقا نوعية . وهذا المبدأ يصدق في كل مكان وآن وهو يصدق على التاريخ نفسه أيضا . ان تيارا فنيا لا يمكن ان يخلف أثرا بينا اذا كان تضافر الشروط غير الملائمة من شأنه أن يودي بعدد من الاشخاص الموهوبين ، الواحد تلو الآخر ، وكان مقدرا لهم أن يعبروا عنه . ولكن موتهم المبكر لا يمنع هذا التيار من أن يجد تعبيرا له ، الا اذا كان مدى عمقه قاصرا عن استثارة مواهب جديدة . وكما ان العمق الملازم لكل اتجاه ادبي أو فني يتحدد بمقدار ما يبلغه من مدى بالنسبة الى الطبقة أو الفئة الاجتماعية التي يعبر عن أذواقها وبالدور الاجتماعي المعد لهذه الطبقة او هذه الجماعة ، فلا بد له ان يرجع كل شيء ، في نهاية التحليل ، الى سير التطور الاجتماعي وعلاقة القوى الاجتماعية .

وهكذا فالخصائص الفردية التي يتصف بها الرجال العظام تحدد السمة الخاصة للاحداث التاريخية ، والمصادفة ، بالمعنى الذي اخذنا به ، تلعب دورا ما في سياق هذه الاحداث التي تحدد الاسباب العامة ، في النهاية ، اتجاهها ، أي تطور القوى المنتجة وبالتالي العلاقات التي تقوم بين الناس وتحددها هذه القوى .

ان الظاهرات الناجمة عن المصادفة والخصائص الفردية التي يتسم بها الرجال البارزون لهي أظهر وأبين من الاسباب العامة التي يقتضي كشفها الغوص في الاعماق . ان القرن الثامن عشر كان قليل الاهتمام بهذه الاسباب العامة، لهذا اعتمد تفسيرا للتاريخ السلوك الواعي و « أهواء » الشخصيات التاريخية . وكان فلاسفة هذا القرن يجزمون بأن التاريخ كله كان سيأخذ وجهة أخرى نتيجة لاضأل الاسباب شأنا فيما لو ان « جوهرا فردا » راح يمرح في دماغ حاكم ما . وتلكم هي فكرة طالما ترددت في سفر **نظام الطبيعة**.

ان الزائدين عن الاتجاه الجديد في العلوم التاريخية يميلون الى القول بأنه ، رغم جميع « الجواهر الافراد » لا يمكن للتاريخ ان يشق له طريقا غير التي سار خطاها . وهم في سعيهم لاستجلاء عمل الاسباب العامة ، جهد المستطاع ، اغفلوا دور الخصائص الفردية التي تتسم بها الشخصيات صانعة التاريخ . ونتيجة لذلك فان وجود بعض الشخصيات مكان شخصيات أخرى ، اكثر أو

أقل كفاءة ، لا يبدل شيئا في سياق التاريخ (١) .

وعندما نقبل بمثل هذه الفرضية يترتب علينـــا بالضرورة **الاعتراف بأن العامل الفردي لا يلعب مطلقا أي دور في التاريخ** وان كل أمر مرده الى عمل الاسباب العامة، الى القوانين العامةللصيرورة التاريخية . وهذا الرأي لا يترك اي حيز للشـــق الصحيح الـــذي تحتويه الفكرة المعارضة . لهذا تحافظ تلك الفكرة ، الى درجة ما ، على مبرر لوجودها .

ان العداء بين هذين المفهومين قد اتخذ شكل مشاقفة تشكل أحد طرفيها القوانين العامة ويشكل عمل الافراد شقها الثاني . واذا ما أخذنا بوجهة نظر الطرف الثاني تراءى لنا التاريخ وكأنه سلسلة من الحوادث العرضية . واذا ما اخذنا بوجهة نظر الطرف الاول نرى ، حتى السمات الخاصة للحوادث ، مشروطة بتأثير الاسباب العامة ولا علاقة لها بالخصائص الفردية التي تتصف بها الشخصيات التاريخية . وينجم عن ذلك ان هذه السمات قد تحددت بالاسباب العامة ولا يمكن ان يطرأ عليها أي تعديل ولو اختلفت الشخصيات. وبذلك تستحيل النظرية **الى الجبرية** .

وهذا مالم يغب عن اذهان خصومها : ان « سانت بوف »يقابل المفاهيم التاريخية لدى « مينيي » بمفاهيم « بوسييه »الذي يعتقد ان القوة التي يشترط اثرها الحوادث التاريخية تأتي من عل وهي تترجم عن الارادة الالهية . ويفتش « مينيي »عن هذه القوة في الميول

---

(١) وهذا مايمكن استخلاصه عندما يشرع في البرهنة ، حيال هذه الناحية ، على أن الاحداث التاريخية تخضع لقوانين معينة . ولكن عندما تكون بعض هـذه القوانين ترجيعا محضا للاحداث ينسب الى العنصر الفردي اهمية مبالغ فيها ، ومايهمنا هنا هو التحليل لاالقصص .

البشرية التي تتجلى في الحوادث التاريخية ، بطريقة تمليها الضرورة شأنها شأن قوى الطبيعة . وكلاهما يعتبر التاريخ سمطا من الاحداث ولا يمكن ، بأية حال ، ان يكون على غير ماكان عليه . وكلاهما آخذ بالجبر ، وفي هذا المجال يقترب الفيلسوف من الكاهن .

وهذا اللوم يظل له مايبرره مادامت هذه النظرية التي ترى ان الاحداث الاجتماعية تخضع لقوانين معينة ، ترد الى الصفر أثر الخصائص الفردية في تلك الاحداث التي يطبعها بها الرجال العظام في التاريخ . وينبغي لهذا اللوم ان يزداد مادام مؤرخو المدرسة الجديدة ، شأنهم في ذلك شأن مؤرخي وفلاسفة القرن الثامن عشر يعتبرون **الطبيعة البشرية** المرجع الاعلى الذي تصدر عنه وترضخ له جميع الاسباب العامة للصيرورة التاريخية . ولما كانت الثورة الفرنسية قد أبانت بأن الحوادث التاريخية ليست مشروطة بالسلوك الواعي وحده فقد وضع «مينيي» و «غيزو» ومؤرخون آخرون ، من المدرسة نفسها ، على الصعيد الاول دور **الاهواء** التي تستبعد غالبا **رقابة الوعي** . ولكن اذا كانت الاهواء هي السبب الاخير والاعم للحوادث التاريخية فلم لايكون « سانت بوف » على حق في جزمه بأن الثورة الفرنسية كان يمكن لها ان تأخذ خاتمة مغايرة للنهاية التي نعرفها ، فيما لو توافر لها رجال اكفاء قادرون على ان يوحوا الى الشعب الفرنسي بميول تكون نقيض الميول التي كانت تحركه .

لقد كان من شأن « مينيي » ان يجيب : بأن ميولا اخرى لم يكن بمقدورها ان تحرك الفرنسيين نتيجة لطبيعة الخلال البشرية نفسها . وهذا صحيح من جهة . بيد ان هذه الحقيقة تتسم بالجبرية الصارخة لانها تعود وتزعم أن تاريخ الانسانية محدد سلفا ، حتى في

ادق جزئياته ، بالخصائص العامة للطبيعة البشرية . وتنشأ الجبرية هنا من احتواء العام للخاص وعلى كل حال فتكلم هي النتيجة لهذا الشكل من الاحتواء .

ولرب قائل يقول : « مادامت جميع الاحداث الاجتماعية محددة بالضرورة فليس لعملنا اي اعتبار » . انها كلمة حق عدل بها عن قصدها ، اذ كان من الواجب القول : اذا كان **العام** يقرر كل شيء فينجم عن ذلك ان **الفردي** ، بما فيه وجودي ليست لـه ايـة اهمية . وهذا الاستنتاج صحيح وان كان استعماله يمضي على غير مااهل له . وليس له اي معنى تطبيقي للمفهوم المادي الحديث عن التاريخ حيث يترك حيز للعمل **الفردي** . بيد ان تطبيقه على آراء المؤرخين الفرنسيين في فترة « الرستوراسيون » له مايبرره .

ولم يعد بوسعنا اليوم ان نعتبر الطبيعة البشرية السبب النهائي والاعم في مجال الصيرورة التاريخية . وهي اذا كانت ثابتة لاتتبدل فليس بوسعها ان تفسر سياق التاريخ المتبدل واذا كانت تتبدل فمن البدهي ان هذه التبدلات نفسها تغدو مشروطة بالصيرورة التاريخية . وعلينا اليوم ان نعترف بأن السبب النهائي والاعم للصيرورة الانسانية في التاريخ يكمن في تطور القوى المنتجة التي تحدد التغيرات المتتالية في العلاقات الاجتماعية بين الناس . وبجانب هذا السبب **العام** نرى اسبابا **خاصة** أي الوضع التاريخي الذي يتم ، من خلاله ، تطور القوى المنتجة لشعب ما والذي يرجع ، بدوره وفي النهايـة الى تطور القوى نفسها لدى الشعوب الاخرى ، وهذا مايردنا الى السبب العام نفسه .

واخيرا فان اثر الاسباب **الخاصة** يتممه عمل الاسباب **الفردية** اي

عمل الخصائص الشخصية لرجال الدولة ومجموع « المصادفات »، وبفضلها تأخذ الاحداث اخيرا **ملامحها الفردية** . ولا تستطيع الاسباب الفردية ان تعدل بصورة اساسية عمل الاسباب **العامة والخاصة** التي تحدد ، بالتالي ، اتجاه وحدود الاثر الذي تخلفه الاسباب الفردية . ومهما يكن من امر فمن المؤكد ان التاريخ سيأخذ ملامح اخرى فيما لو استعيض عن الاسباب الفردية التي تؤثر فيه بأسباب اخرى من المرتبة نفسها .

ان«مونود» و «لامبرخت» يسترسلان في استشفاف كل شيء من خلال الطبيعة البشرية . وقد صرح« لامبرخت »مرارا بأنه يعتبر البسيكولوجيا الاجتماعية سبب الاحداث التاريخية . وهذا خطأ فادح ومن مغبته ان الرغبة ، المستحبة في حد ذاتها ، ينبغي لها ان تأخذ بعين الاعتبار الحياة الاجتماعية بكاملها . وهذا من شأنه الافضاء الى انتقائية جوفاء بقدر ما هي منتفخة،او الافضاء ، لدى من هم اعمق تفكيرا ، الى براهين كالتي اوردها « كابليتز » في كلامه على الاهمية المقارنة للذكاء والعاطفة .

لنعد الى موضوعنا . ان الرجل العظيم يعد عظيما لا لان صفاته الشخصية تطبع الاحداث التاريخية بطابعها الخاص بل لانه يتحلى بصفات تجعله اقدر من الآخرين على الاستجابة للضرورات الاجتماعية العظيمة في عصره ، تلك الحاجات التي تتأتى عن الاسباب العامة والخاصة . ان « كارليل » (١) في كتابه المعروف عن الابطال يسمي الرجال العظام **البادئين** . وتأتي هذه الكلمة في موضعها تماما . نعم ان الرجل العظيم هو **الباديء** لانه يرى **ابعد** من الآخرين ويتشوف بقوة اكثر منهم . انه يجد حلا للمسائل العلمية الراهنة بقدر ما

---

(١) كارليل توماس (١٧٩٥ – ١٨٨١) كاتب ومؤرخ برجوازي **انجليزي** .

يطرحها التطور الثقافي المتقدم للمجتمع ، وهو الذي ينبه الى الحاجات الاجتماعية الجديدة ، التي خلفها تطور العلاقات الاجتماعية في داخل المجتمع ، ويأخذ على عاتقه امر تحقيقها . انه بطل ، لابمعنى انه قادر على ايقاف او تعديل السياق الطبيعي للاشياء بل بمعنى أن عمله هو التعبير الواعي والحر عن سياق هذه الاشياء الضروري وغير الواعي . وكل اهميته تكمن هنا وكذلك قوته . ولكن هذه الاهمية جبارة وهذه القوة هائلة .

ماهو السياق الطبيعي للأحداث ؟

كان « بسمارك » يرى ان ليس بوسعنا ان نصنع التاريخ بل علينا الانتظار حتى يصنع نفسه . ولكن بفضل من يصنع التاريخ ؟ انه يصنع بفضل **الانسان الاجتماعي** وهو « **العامل** »**الوحيد** . ان الانسان الاجتماعي يخلق علاقاته الخاصة أي العلاقات الاجتماعية . ولئن اوجد،في فترة ما ، هذهالعلاقات بدلا من تلك فلا يتم ذلك، بداهة ، دون مسببات . وحالة القوى المنتجة هي التي تقدمالسبب وما من رجل عظيم يستطيع ان يفرض على المجتمع علاقات لاتتلاءم ابدأ مع حالة القوى المنتجة او لم يئن بعد أوان تلاؤمها . وبهذا المعنى يغدو متعذرا عليه ان يصنع التاريخ اذ يصبح كمن يقدم او يؤخر عبثا عقارب ساعتة . فليس بمقدوره ان يعجل في سير الزمن وليس بمستطاعه ان يعود به القهقرى . وهنا كان « لامبرخت » على حق تماما ، فما كان بوسع « بسمارك » وهو في اوج عظمته، ان يعود بألمانيا الى حالة الاقتصاد البدائي .

ان للعلاقات الاجتماعية منطقها : فما دام الناس يعملون معا، وفق علاقات معينة ، فهم يشعرون ويفكرون ويعملون بالضرورة تبعا لطريقة واحدة . ولن يكسب رجل الدولة شيئا اذا خاض معركة ضد هذا المنطق . والمنطق الطبيعي للاشياء ، اي هذا المنطق نفسه عن العلاقات الاجتماعية ، يقضي على جهوده قضاء مبرما. ولكن اذا استطعت ان احيط علما بالاتجاه الذي تأخذ فيه العلاقات الاجتماعية طريق التبدل ، نتيجة التغيرات التي تطرأ على التطور الاجتماعي والاقتصادي للانتاج ، فبوسعي عندئذ ان الم بالاتجاه الذي تتعدل طبقاله، وبدورها ، البسيكولوجيا الاجتماعية. ويصبح لدي ، حينئذ ، امكان التأثير في هذه البسيكولوجيا ان التأثير في البسيكولوجيا الاجتماعية معناه التأثير في الاحداث التاريخية . وتبعا لذلك استطيع ، بوجه من الوجوه ، ان اصنع التاريخ ولست بحاجة لانتظاره حتى « يصنع نفسه » .

يعتبر « مونود » ان الاحداث والشخصيات التاريخية ، الهامة حقا ، انما تقوم على كونها اشارات ورموزا لتطور المؤسسات والشروط الاقتصادية . الفكرة صحيحة ولكن طريقة التعبير يخالطها شيء من عدم الصحة . ونظرا لكونها صحيحة فمن الخطأ ان يعارض عمل الرجال العظام « **بالحركات الوئيدة** » لتلك الشروط والمؤسسات . ان تغييرا متفاوت البطء ينتاب « الاسباب الاقتصادية » ، ويرغم المجتمع، بصورة دورية ، على تطوير مؤسساته عاجلا او آجلا . ان هذا التطور لايتم من « **تلقاء نفسه** » بل يستلزم دائما تدخل **الرجال** الذين توضع امامهم المسائل الاجتماعية الهامة. والرجال الذين يسمون عظاما هم الذين يساهمون اكثر من الآخرين

في انجاز هذه المهام . أجل ، ان انجاز مهمة ما لايعني مطاقا انيكون الانسان « رمزا » او « علامة » للمهمة التي تحققت .

ولئن كان « مونود » كما يبدو لنا ، قد اقدم على مثل هذه المعارضة ، مأخوذا بفتنة كلمة : وئيدة ، فان هذا الوصف أثير الى الكثيرين من التطوريين المعاصرين . وهذا النمط مفهوم من الوجهة البسيكولوجية : فهو ينشأ ، بالضرورة ، في الوسط الذي يشعر بالاعتدال والدقة في تحديد الامور . ولكنه ، من الوجهة المنطقية لايقوى على الصمود امام النقد ، كما أظهر « هيجل » ذلك .

ان ميدان العمل الواسع لاينفسح امام **« البادئين »** والرجال العظام وحدهم وانما ينفسح امام جميع الناس ، امام الذين يملكون عيونا للنظر وآذانا للسمع وقلبا لمحبة القريب . ان مفهوم العظمة نسبي . « وليس للانسان حب اعظم من ان يهب حياته في سبيل اخوانه » (١) .

(١) من انجيل القديس يوحنا .

وافقت وزارة الاعلام ـ مديرية الرقابة على طبع وتداول هـذا
الكتاب تحت رقـــم ١٩٧٤/٥٢٧٢

١٩٧٤/١١/٣٠٠٠

التوزيع في الأقطار العربية
دار دمشق - دمشق - شارع بور سعيد ☎ ١١١٠٤٨
١١١٠٢٢

السعر ٥٠٠٤٠